أبو بكرالط طوشى العالم الناهد الثائر

ستاليين الدكتورجمال الدين الشيال

أبو بكر الطرطوشي محمد بن الوليد

۵۰ ـ ۵۰۰ م = ۱۰۰۸ ـ ۱۱۲۳ م المالم الزاهد الثائر

((اذا عرض لك أمران _ أمسر دنيسا واخرى _ فبادر بأمر الأخرى يحصل لك أمر الدنيا والأخرى)) .

أبو بكر الطرطوشي

((ان الرعية اذا قدرت على أن تقول قدرت على أن تفعل ، فاجتهد ألا تقول تسلم من أن تفعل)) .

أبو بكر الطرطوشي

البائلالأول

نشأته الاولى واسرته

- (أ) دراسته الأولى على أبي الوليد الباجي .
 - (ب) أسرته

(أ) دراسته الأولى على أبي الوليد الباجي

هو أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان أبوب القرشي الفهرى الطرطوشي ، المشهور بابن أبي رندقة .

ولد في سنة ٥٠٤ أو ٤٥١ هـ في مدينة طرطوشة ، واليها ينسب /

وطرطوشة _ كما وصيفها ياقوت الحموى فى كتابه معجم البلدان _ مدينة كبيرة من مدن الاندلس ، تقوم على سفح جبل الى الشرق من بلنسية وقرطبة ، بينها وبين البحر عشرون ميلا ، وهى مدينة منيعة يحيط بها سور من الصخر حصين بناه بنو أمية ، وللسيور أربعة أبواب ملبسة كلها بالحديد ، وبها دار لصيناعة السفن ، ففى المدينة وعلى جبالها ينبت شجر الصنوبر الذى لا يوجد له نظير فى الطول والغلظ ، ولا يفعل فيه السوس ما يفعله فى غيره من الخشب ، ومنه تتخذ صوارى السفن .

وكانت طرطوشة ألى هذا مدينة تجارية عظيمة ، بها اسواق وعقارات وضياع ، وسوقها في الربض القبلى جامعة لكل صناعة ومتجر ، وكان بها جامع كبير به خمس بلاطات ، وله رحبة واسعة ، بنى سنة ٣٤٥ هـ ، كما كان بها أربعة حمامات .

في هذه المدينة الأندلسية الكبيرة نشأ فقيهنا وعالمنا أبو بكر الطرطوشي ، وفيها درج ينعم بجمالها الطبيعي الملهم ، فالمدينة تحتضنها الجبال الشاهقة ، تغطيها أشجار الصنوبر الفارعة السامقة ، وتطل من بعيد عالى البحر الأبيض المتوسط بأمواجه الصاخبة حينا ، الهادئة المتهادية حينا آخر .

وفى مسجد طرطوشة الكبير تلقى أبو بكر محمد بن الوليد علومه الأولى ، ولما شب عن الطوق رحل الى مدن الأندلس الكبيرة الأخرى

يستزيد من .. فذهب الى مدينة سرقسطة ، واتصل بكبير علمائها فى ذلك ، وأخذ عنه مسائل الخلاف ، وسمع منه ، وأجاز له .

وابو الوليد الباجي هو شيخ الأندلس وعالمها في ذلك الوقت دون منازع ، وخاصة بعد وفاة نده ومنافسه ابن حزم ، فاليه كانت تشد الرحال ، والى حلقته كانت تفد جموع الطلاب من مشارق الأندلس ومفاربها ، ويبدو أن الطرطوشي بدأ يتتلمذ على الباجي وهو في سن العشرين أو نحوها ، أي حوالي سنة .٧١ هـ ، لأن أبا الوليد الباجي توفي سنة .٧١ هـ .

وتجمع المراجع كذلك على أن الطرطوشي قرأ الفرائض والحساب بوطنه ، وان كانت لا تذكر الشيوخ الذين اخذ عنهم هذين العلمين .

وانفرد المقرى في كتابه « نفح الطيب » بقوله ان الطرطوشي قرأ الأدب على أبى محمد بن حرم بمدينة اشبيلية ، ولسنا نميل الى تصديق المقرى في قوله هذا ، لأن ابن حرم توفي سنة ٥٦ هـ ولم يكن الطرطوشي في هذه السنة قد جاوز الخامسة أو السادسة من عمره ، ولا يعقل أن يرتحل الطرطوشي في هذه السن الصغيرة الى اشبيلية ، وأن يتتلمل على ابن حزم ، ويأخذ عنه الأدب أو يفقهه ، وقد يكون قرأ كتبه في الأدب بعد ذلك بنفسه ، أو على واحد من تلاميذ ابن حزم ، ومن هنا ذكر هو أو ذكر عنه أنه تتلمل على ابن حزم في الأدب .

(ب) أسرته

ولسنا نعرف شيئا عن أسرة فقيهنا أبى بكر الطرطوشى ، فان المراجع التي ارخت له لم تذكر حرفا واحدا عن هذه الأسرة :

هل كانت هذه الأسرة غنية فنقول انه نشأ في بحبوحة من الميش ؟

أو هل كانت فقيرة فنقول انه ذاق مرارة العوز منذ طفولته الأولى ؟

هل کان اهلوه ذوی جاه وسلطان ؟

هل كانوا من المستعلين بالتجارة ، وطرطوشة كما راينا مدينة تجارية ؟

هل كانوا من رجال العلم ولهذا نشأ فقيهنا عالما ؟

هل كانوا رجال حرب ، والأندلس كانت تضطرم في ذلك الوقت بالفتن وتنتهبها الانقسامات ؟

لا نستطيع في الحقيقة أن نجيب على هذه الأسئلة الا استنتاجا ، فان الطرطوشي يروى في كتابه « سراج الملوك » قصة واحدة عن فرد واحد من أفراد أسرته ، نفهم من هذه القصة أن أسرة والدته كانت من سرقسطة ، ولعل هذا يفسر لم اتجه في رحلته العلمية الأولى الى هذه المدينة ؛ ونفهم منها كذلك أن بعض أفراد هذه الأسرة كانوا من رجال الحرب الشجعان المبرزين ، فهذه القصة تتحدث عن الشجاعة الخارقة لرجل اسمه أبو الوليد بن فتحون ، كان خالا لوالدة الطرطوشي .

ولنستمع الى الطرطوشي نفسه يروى هذه القصة ، قال :

« كان بسر قسطة فارس يقال له ابن فتحون ، وكان يناسبنى فيقع خال والدتى ، وكان أشجع العرب والعجم ، وكان المستعين ابو المقتدر يرى له ذلك ويعظمه ، وكان يجرى عليه فى كل عطية خمسرمائة دينار ، وكانت النصرانية بأسرها قد عرفت مكانه ، وهابت لقاءه ، فيحكى أن الرومى كان اذا سقى فرسه فلم يشرب يقول له : اشرب ، هل ابن فتحون رأيت في الماء ؟!

فحسده نظراؤه عسلى كثرة العطاء ومنزلته من

السلطان ، فأوغروا به صدر المستعين ، فمنعه أياما ؟ ثم ان المستعين انشأ غزوة إلى بلاد الروم ، فتواقفت المسلمون والمشركون صفوفا ، ثم برز علج الى وسط الميدان ينادى : هل من مبارز ؟ فخرج اليه فارس من المسلمين ، فتجاولا ساعة ، فقتله الرومى ، وصلا الكفار سرورا ، وانكسرت نفوس المسلمين .

وجعل الرومى يكر بين الصفين وينادى : هل من اثنين لواحد ؟ فخرج اليه فارس من المسلمين ، فقتله الرومى ، فصل المسلمين ، فصلت نفوس المسلمين .

وجعل يجول بين الصفين ويقول: ثلاثة لواحد ؟ فلم يستجر أحد من السلمين أن يخرج اليه ، وبقى الناس في حيرة .

فقيل للسلطان : مالها الا أبو الوليد بن فتحون ؛ فدعاه وتلطف به ، وقال له :

- أما ترى ما يصنع هذا العلج ؟

فقال : هو بعيني .

فقال: فما الحيلة فيه ؟

فقال أبو الوليد: فماذا تريد ؟

فقال: أكف المسلمين شره .

فقال : الساعة يكون ذلك ان شاء الله تعالى .

فلبس قميص كتسان ، واسستوى على سرجه بلا سلاح ، واخذ بيده سوطا طويل الطرف ، وفي طرفه عقدة معقودة ، ثم برز اليه ، فعجب منه النصراني ، ثم حمل كل واحد منهما على صاحبه ، فلم تخط طعنة النصراني سرج ابن فتحون ، واذا ابن فتحون متعلق

برقبــة الفرس ، ونزل الى الأرض لا شىء منه فى السرج ، ثم طفر على سرجه ، وحمل عليه ، وضربه بالسوط فى عنقه ، فجلبه بيده من السرج ، فاقتلعه عن سرجه ، وجاء به يجره ، فألقاه بين يدى المستعين .

فعلم المستعين انه كان قد أخطأ في صنعه معه ، فأكرمه ، ورده الى أحسن أحواله » .

فوالدة الطرطوشي كانت اذن من أسرة ذات جاه في سرقسطة ، يمتهن أحد رجالها فن الحرب والقتال ، ويبرز في هــــذا الفن فيتفوق على أقرانه جميعا حتى يقربه الساطان اليه ، ويغدق عليه العطايا ، ويعتز بشجاعته ، فيلجأ اليه في الملمات .

أما والد الطرطوشي فاسمه الوليد ، وان كانت المراجع تذكر أن أبا بكر الإبن كان يعرف « بابن أبي رندقة » (١) .

فهل كانت « أبو رندقة » كنية لأبيه ؟ وما معناها الذى تذكره المراجع أنها لفظة فرنجية ، فاذا صح أنها كانت كنية لأبيه ، فهل كان أبوه ينحدر اذن من اصل اسباني مسيحي ؟

اغلب الظن أنه لم يكن كذلك ، فان نسبه فيما وصل الينا واضح ، وينتهى الى قريش ، فهو محمد بن الوليد بن محمد ابن خلف بن سليمان بن أيوب القرشى الفهرى ، فهو من أصل

⁽۱) هى « رندقة » بضم الراء عند ابن فرحون ، و « رندقة » بفتح الراء عند ابن خلكان والمقرى ، وقد فسرها ابن خلكان فقال انها كلمة فرنجية معناها عند ابن خلكان والمقرى ، وقد فسرها ابن خلكان فقال انها كلمة فرنجية معناها - Pons Boigues في كتابه Bio - Bibliografico sobre las Historiadores Y geografos esrabigo - Bio - Bibliografico sobre las Historiadores Y geografos esrabigo (Espanoles. madrid 1898) مكونة من لفظين ، الأول بمعنى تعال أى أقبل وهى مأخوذة من الفعل الغرنسي (Rand-acà) ، فاذا جمعا صارا (Rand-acà) ، فاذا جمعا صارا (Rand-acà)

عربى واضح ، ولعله كنى بهذه الكنية الفرنجية في حياته لأمر لا نمر فه يتصل بالمعنى الحقيقي لهذا اللفظ .

أما مهنته فلسنا نعرف عنها شيئًا كذلك ، ولكننى أرجع أنه لم يكن يمتهن التجارة أو الصناعة والا لنشأ أبنه على احدى هاتين الحرفتين كما كانت العادة الغالبة بين سكان المدن الكبرى في العصور الوسطى .

وأبو بكر الطرطوشى نفسه يصرح أنه لم يكن يفقه شيئا فى التجارة ، وأنه لم يحترف حرفة ما ، فأن هذه كانت كبرى مشاكله عند ما فكر فى الرحلة الى المشرق ، يقول فى كتابه « سراج الملوك »:

« وأما أنا ، فلما هممت بالرحيل من بلدى الى المشرق في طلب العلم كنت لا أعرف التجارة ، ولا لى حرفة أرجع اليها ، فجزعت من الخروج ، وكنت أقول: « إذا ذهبت نفقتي فماذا أفعل ؟ » .

وكان أقوى الآمال فى نفسى أن أحفظ البسساتين بالأجسرة ، وأدرس العلم بالليل ، ثم استخرت الله فرحلت ، وكانت معى نفقسة وافرة فى هميان على وسطى » .

فالذى نرجحه أن والده كان عالما أو من المستفلين بالعلم ، وأنه لهذا وجه ابنه هذه الوجهة التى يرضاها ، وأن أسرته كانت على شيء من الثراء ، ولهذا استطاع أن يعيش فى وطنه حتى الخامسة والعشرين من عمره وهو عالة على اهله ، يطلب العلم وهم يكفونه مؤونة السعى وراء الرزق ، ولهذا استطاع أيضا أن يزود قبل خروجه لأرحلة بنفقة وافرة - كما يقول .

ولكن الذي كان يشمغل باله أن تنفد هذه النفقة أو تفقد ، وهو لا يعرف حرفة يرتزق منها ، فهداه تفكيره أن حدث له شيء

من هذا أن يعمل حارسا للبساتين 4 ليفرغ في الليل لدراسة العلم ٤ ثم أستخار الله وتوكل عليه وبدأ رحلته . وشاق الطرطوشي ما كان يشوق رصفاءه من فقهاء الأندلس ، شاقته الرحلة الى المشرق للحج ولطلب العلم ، أو لعله أعجب بسيرة استاذه أبي الوليد الباجي ، فأراد أن ينهج نهجه ، فقد رحل الباجي من قبل الى المشرق ، وحج ومكث في مكةً ثلاث سنوات ، ثم زار مدن الشرق الكبرى : بفداد والموصل ودمشق ، واتصل بأعلامها وعلمائها ، وأخذ عنهم ، وأخذوا عنه ، ورجع الى وطنه بعد ثلاثة عشر عاما ، حصل في ابانها علما كثيرا ، وأفاد تجربة وقدرة على الجدل والمناقشة ، فأثار في محافل العلم الأندلسية ضجة كبرى .

فلم لا يحتذي التلميذ حذو استاذه ؟

فلعله يبلغ من المجد العلمي ما بلغ استاذه .

البابالثاني

الطرطوشي في المشرق

- (أ) في مكة :
- (بُ) في المراق:
- 1 _ الطرطوشي والدرسة النظامية في بغداد .
 - ٢ ــ أساتذة الطرطوشي في بفداد .
- ٣ _ اتجاه الطرطوشي الى التصوف منذ كان في بغداد .
 - (ج) في الشام:
 - ١ _ في بيت المقدس وجبل لبنان .
 - ٢ _ في انطاكية .

الطرطوشي في المشرق

(١) في مكة

فى سنة ٤٧٦ هـ غادر الطرطوشى وطنه ـ وهو غض الشباب فى الخامسة والعشرين من عمره ـ ليبدأ رحلته الى الشرق .

ونحن لا نعرف شيئًا عن المرحلة الأولى من رحلته هذه .

فلا نعرف مثلا هل سلك طريق البحر أو طريق البر ، ولا نعرف أى الأقطار أو البلدان زار في طريقه .

ولكننا نلقاه أول ما نلقاه فى مكة وقد استقر بها قليلا بعد أداء فريضة الحج ، يلقى بعض الدروس ، فقد روى مواطن من مواطنيه – زامله فى شبابه الأول ، وتتلمذ معه فى سرقسطة على أبى الوليد الباجى – أنه رآه فى مكة ، واستمع الى بعض دروسه هناك .

هذا المواطن هو القاضى أبو على الحسين بن محمد بن فرو الصدفى ، قال :

« صحبته عند الباجى ، ولقيته بمكة ، واخذت عنه أكثر السنن لأبى داود عن التسترى » .

ولم يمكث أبو بكر الطرطوشى فى مكة طويلا ، بل استئنف رحلته ، واتجه الى بغداد ، فان مواطنه وزميله أبا على الحسين أبن محمد الصدفى ـ الذى قابله فى مكة _ يستطرد فى حديثه عنه فيقول :

« ثم دخل بغداد وأنا بها » .

(ب) في بفسداد

1 - الطرطوشي والمدرسة النظامية :

كانت بغداد في ذلك الوقت مركزا من اكبر مراكز العلم في العالم الاسلامي ، وكانت محط رحال العلماء ، يفدون اليها من أقصى المشرق ومن اقصى المغرب ، فكان لابد لأبى بكر الطرطوشي ـ وقد رضيت نفسه بأداء فريضة الحج والمجاورة في مكة وقتا ما ـ أن يرحل اليها ليستكمل دراسته ، ويتصل بعلمائها الأعلام ، ويتتلمد عليهم ، ويأخذ عنهم .

وكان يلى أمور الشرق فى ذلك الوقت نظام الملك _ وزير الملكين السلجوقيين: ألب أرسلان وملك شاه _ ، وهو وزير عالم يحب العلم والعلماء ، ويقربهم اليه ، ويغدق عليهم العطايا .

وقد شهد الطرطوشى أثناء مقامه فى بغداد آثار هذه السياسة العلمية الحصيفة التى اصطنعها نظام الملك لنفسه وللدولة ، واشاد بذكرها فى كتابه « سراج الملوك » ، قال :

« وذلك أنى لما كنت بالعراق ، وكان الوزير نظام الملك قد وزر لأبى الفتح _ ملك الترك _ ابن ألب أرسلان ، وكان قد وزر لأبيه من قبله ، فقام بدولتهما أحسن قيام ، فشد أركانهما ، وشد بنيانهما ، واستمال الأعسداء ، ووالى الأولياء ، واستعمل الكفاة ، وعم احسانه العسدو والصديق ، والبغيض والحبيب ، والبعيد والقريب ، حتى ألقى الماك بجرانه ، وذل الخلق لسلطانه .

وكان الذى مهد له ذلك باذن الله تعالى وتوفيقه ، أنه أقبل بكليته على مراعاة رجال الدين ، فبنى دور العلم للفقهاء ، وأنشأ المدارس للعلماء ، وأسس الرباطات للعباد والزهاد وأهل الصلاح والفقراء ، ثم أجرى لهم

الجرايات والكساوى والنفقات ، . . وعم بذلك أقطار مملكته ، فلم يكن من أوائل الشام ـ وهى بيت المقدس ـ الى سائر الشام الأعلى وديار بكر والعراقين ، وخراسان بأقطارها ، إلى سمر قند من وراء نهر جيحون ، مسيرة زهاء مائة يوم ، حامل علم أو طالبه ، أو متعبد أو زاهد في زاويته ، الا وكرامته شاملة له ، وسابغة عليه ، وكان الذي يخرج من بيوت أمواله في هذه الأبواب ستمائة الف دينار في كل سنة » .

وذكر الطرطوشي بعد أن تحدث عن هذه النهضة العلمية وآثارها في تدعيم ملك السلاجقة أن بعض الوشاة وشوا بالوزير نظام الملك عند السلطان ملك شاه ، ليوغروا صدره ضده ، وقالوا : أن هدا المال الوفير الذي يصرف على الفقهاء والعلماء أولى به أن يصرف لتكوين جيش ضخم يهاجم به القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية ويضمها الى ملكه ، وأخذ ملك شاه ببريق هذا الحديث الواشي ، واستدعى اليه وزيره نظام الملك ، ودار بين الرجلين حديث رائع يرويه الطرطوشي معجبا به في كتابه « سراج الملوك » :

قال ملك شاه لوزيره:

« يا أبت: بلغنى أنك تخرج من بيوث الأموال كل سنة سستمائة ألف دينار الى من لا ينفعنا ولا يغنى عنا ؟! » .

فبكى نظام الملك وقال:

« یا بنی : أنا شیخ أعمجی ، لو نودی علی فیمن یرید لم أحفظ خمسة دنائیر ، وأنت غلام ترکی ، لو نودی علیك عساك تحفظ ثلاثین دینارا ، وأنت مشتغل بلذاتك ، منهمك فی شهواتك ، وأكثر ما یصعد الی الله تعالی معاصیك دون طاعتك .

وجيوشك الذين تعدهم للنوائب اذا احتشدوا وكافحوا عنك بسيف طوله ذراعان ، وقوس لا ينتهى مرماه ثلاثمائة ذراع ، وهم مع ذلك مستغرقون في المعاصى والخمور والملاهى والندماء والطنبور .

وأنا أقمت لك جيشا يسمى جيش الليل ، اذا نامت جيوشك ليلا قامت جيوش الليل على أقدامهم صفوفا بين يدى ربهم ، فأرسلوا دموعهم ، وأطلقوا بالدعاء السنتهم ، ومدوا الى الله أكفهم بالدعاء لك ولجيوشك ، فأنت وجيوشك في خفارتهم تعيشون ، وببركاتهم تمطرون وترزقون ، تمرق سهامهم الى السماء السابعة بالدعاء والتضرع » ،

قال الطرطوشي معلقا:

« فبكي أبو الفتوح الملك بكاء شديدا ثم قال :

- «شاباش يا أبت شابإش!! أكثر من هذا الجيش » .

فنظام الملك كان يرى اذن أن جيش الليل ـ جيش العلماء والفقهاء والصوفية ـ الذى يكونه ويفدق عليه العطاء ، له من الضرورة قدر ما لجيش الدولة الآخر جيش الجنود والقواد ، وأن دعاء جيش العلماء يتعاون مع سهام جيش الجنود في تدعيم أركان الدولة وتشبيت أركانها .

وأخص ما يذكر به نظام الملك في التاريخ أنه منشىء المدارس في العالم الاسلامي ، فقد كانت المساجد الى عصره هي معاهد العلم ، فيها تعقد حلقاته ودروسه ، فكان نظام الملك أول من أنشأ معاهد مستقلة للتعليم ، يتفرغ فيها الطلاب للتعلم والمدرسون للتدريس ، وأوقف الأوقاف الكثيرة ورتب المرتبات الوفيرة للصرف عليها وعليهم ، وأسماها « المدارس » .

وحملت كل مدرسة منها اسمه ، فكانت تسمى « النظامية » ، وكانت أكبرها وأشهرها « المدرسة النظامية » ببغداد التي بنيت

قبيل وصول فقيهنا أبى بكر الطرطوشى الى بفداد بسنوات قليلة ، وقد شهد الطرطوشى نظامية بغداد وهى فى أوج عظمتها ، وتتلمذ بها ، ووصفها ، وذكر قصة بنائها فى نص قيم نادر ، قال :

« ومن مناقب هذا الرجل (نظام الملك) و فضائله أن رجلا قصده يقال له « أبو سعيد الصوفى » فقال له : — « يا خواجا : أنا أبنى لك مدرسة ببغداد مدينة السلام لا يكون في معمور الأرض مثلها ، يخلد بها ذكرك الى أن تقوم الساعة » .

_ قال : « افعل » .

وكتب الى وكلائه فى بغداد أن يمكنوه من الأموال . فابتاع (أبو سعيد الصوفى) قطعة على شاطىء دجلة ، وخط المدرسة النظامية ، وبنساها أحسن بنيان ، وكتب عليها اسم نظام الملك ، وبنى حولها أسواقا تكون محبسة عليها ، وابتاع ضياعا وخانات وحمسامات وأوقف عليها ، وكان ذلك فى سنى عشر الخمسين وأربعمائة للهجرة » .

٢ ـ أساتذة الطرطوشي في بغداد:

كان أول من عين للتدريس في نظامية بغداد أبو نصر عبد السيد أبن محمد بن الصباغ .

ثم تولى منصب التدريس بها عدد من كبار الفقهاء الشافعية ، من أمثال أبى اسحاق الشيرازى ، وأبى سعد عبد الرحمن بن مأمون التولى ، وأبى بكر محمد بن أحمد الشاشى ، وحجة الاسللم أبى حامد الغزالى .

ورغم أن أبا بكر الطرطوشى كان مالكى المذهب ، فقد تتلمذ على معظم هؤلاء الفقهاء الشافعية ، وعلى بعض فقهاء الحنابلة ، وقد نصت المراجع التى ترجمت له على أسماء هؤلاء الأساتذة الذين

اخذ عنهم الطرطوشي في بغداد ، قال الحميري في كتابه « صفة حزيرة الأندلس » :

« وسكن بغداد ، وتفقه على أبى بكر الشاشى ، وسمع بها الحديث » .

وقال ياقوت في « معجم البلدان »:

« ودخل بغــــداد والبصرة ، فتفقه عند أبى بكر الشاشى ، وأبى سعد بن المتولى ، وأبى حمـــد الجرجانى ، أئمة الشافعية ، ولقى القاضى أبا عبد الله الدامفانى . . وسمع ببغداد من أبى محمــد التميمى الحنبلى وغيرهم » .

دخل أبو بكر الطرطوشى بغداد اذن وهى تنتغش بالعلماء الأعلام ، وتضج بالنشاط العلمى المتشعب النواحى ، والمدرسة النظامية هى واسطة العقد ومركز هذا النشاط ، وكبار العلماء يتنافسون فى سبيل الوصول الى كرسى الأستاذية بها ، ولكل استاذ تلاميذه الذين يتعصبون له ، ويفخرون بالتتلمذ عليه .

روى ابن خلكان أن المدرسة النظامية بدىء في بنسائها سسنة ٥٩ هـ ، وفتحت يوم السبت عاشر ذى القعسدة من سنة ٥٩ هـ ، وكان نظام الملك قد اصدر أمره بتعيين كبير فقهاء الشافعية في بغداد أبي اسحاق الشيرازى للتدريس بها ، واجتمع النساس يوم الافتتاح للاسستماع الى أول درس يلقيه ، ولكن أبا اسحاق للأمر ما للختفى في ذلك اليسوم ولم يحضر آلى المدرسة ، فعين مكانه عالم آخر لا يقل عنه مكانة هو أبو نصر أبن الصباغ ، وبعد أيام ظهر الشيخ أبو اسحاق في مسجده ، وكان أصلحابه وتلاميذه قد آلهم موقفه كما آلهم أن يولى منافسه أبن الصباغ للتدريس في النظامية ، فأعلنوا غضبهم من شيخهم ، وانغضوا عن دروسه احتجاجا ، ثم راسلوه ، وما زالوا به يقنعونه وانغضوا عن دروسه احتجاجا ، ثم راسلوه ، وما زالوا به يقنعونه

أن يقبل وظيفة الأستاذية بالنظامية ، وهددوه أن ينفضوا من حوله وينضموا الى ابن الصباغ ان هو أصر على موقفه ، فاضطر أن يذعن لرأيهم ، وقبل المنصب ، وبدأ التدريس في النظامية ، وعسزل ابن الصباغ بعد أن درس عشرين يوما .

كان رجال هذه المدرسة جميعا الذين تعاقبوا على التدريس بها والذين أخذ عنهم الطرطوشي من العلماء البارزين ، تجمع المصادر على وصفهم بالفضل والعلم والتقوى والقدرة على التأليف والانتاج .

وأبو اسحاق الشيرازى عندهم امام واقته ببغداد ، وروى الطرطوشى نفسه شعرا قاله غيره يصف الشيرازى بالذكاء المتوقد . قال أبن خلكان في « وفيات الأعيان » :

« قال الشيخ أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشى: كان ببغداد شاعر مفلق يقال له عاصم ، فقال يمدح الشيخ أبا اسحاق ـ قدس الله سره: تراه من الذكاء نحيف حسم

اذا كان الفتى ضخم ألمالي

فليس يضيره الجسم النحيل

أما أبو بكر الشاشى فتصفه المراجع بأنه كان فخر الاسلام ، فقيه بغداد ، تتلمذ على أبى اسحاق الشيرازى ، ثم انتهت اليه رياسة الطائفة الشافعية ، وله تصانيف حسنة ، وتعين في الفقه بالعراق بعد أستاذه أبى اسحاق ، وتولى التدريس بالمدرسية النظامية بمدينة بغداد سنة ٤٠٥ ه .

ووصف أبو نصر بن الصباغ بأنه كان فقيه العراقين في زمنه ، وكان يضاهى أبا اسحاق الشيرازى ، وكانت الرحلة اليه من البلاد ، وكان ثقة حجة صالحا ، تولى التدريس بالنظامية ببغداد أول ما فتحت ، ولما توفى أبو اسحاق الشيرازى أعيد للتدريس بها .

أما حجة الاسلام أبو حامد الفزالي فيصغه ابن خلكان بقوله: « لم يكن للطائفة الشافعية آخر عصره مثله » .

والراجح أن الطرطوشي لم يتصل به ولم يأخذ عنه ، فقد عين الفزالي للتدريس في نظامية بفداد في سنة ١٨٤ هـ بعد خروج الطرطوشي منها ، ولكننا سنعرف فيما بعد أن العالمين الكبيرين سيتقابلان معا في مدينة الاسكندرية ، وستنشأ بينهما خصومة علمية سيكون لها شأنها .

اندمج أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشى فى هذه الحياة العلمية النشيطة ، واستمع الى هذه النخبة الممتازة من العلماء الأجلاء ، ولابد أنه شارك فيها وأسهم فى حلقاتها ، فأنه يروى فى بعض كتبه التى ألفها بعد خروجه من العراق شعرا كثيرا سمعه أثناء مقامه فى بغداد والبصرة من بعض هؤلاء الشيوخ ، من أمثال أبى العباس الجرجانى ، وأبى محمد التميمى .

٣ _ اتجاه الطرطوشي الى التصوف منذ كان في بغداد:

وهذا الشعر الذي يرويه أبو بكر الطرطوشي يعطينا صورة أخرى لهؤلاء العلماء الذين أخذ عنهم ، فهم كانوا في جملتهم مع تضلعهم في الفقه والعلوم الدينية من المتصوفة الذين يعتقدون أن الحياة الدنيا نعيم زائل ، والذين كانوا يفرغون لحياة كلها زهد وتقشيف وعبادة وذكر لله ، وسنرى فيما بعد أن هذا النوع من الحياة الذي شاهده الطرطوشي في بغداد قد أثر فيه تأثيرا كبيرا ، فبدأ منذ ذلك الحين يأخذ نفسه به ، حتى عده من كتبوا عنه واحدا من المتصوفة الزاهدين .

كان هذا الشعر الذى سمعه من شيوخه العراقيين ، ورواه عنهم فيما بعد فى كتابه « سراج الملوك » يضرب كله المثل بالأمم الفابرة ، وما بنت من قصور ، ومازينت من عمائر ، وكيف انتهى

كل هذا الزخرف الى زوال ، ويدعو الى اتخاذ الموعظة من هذا كله ، فهو يقول:

« أنشدنى القاضى أبو العباس الجرجانى ــ رحمه الله ــ بالبصرة :

بالله ربسك كم قصر مسررت به

قد كان يعمر باللذات والطرب ؟ !

طارت عقاب المنايا في جوانبه ،

فصاح من بعده بالويل والحــــرب

وأنشدني أيضا:

أيها السرافع البنساء رويدا ،

لن يدود المسسون عنك المساني

كُلُّ شيء أبقى من الانسلان

وأنشدني بالبصرة

أن كنت تسمو الى الدنيا وزينتها ،

فانظر الى ملك الأمسلك قارون

زم الأمـــور فأعطته مقادتهـا ،

وسخر الناس بالتشميديد واللين

حتى اذا ظن أن لا شيء غالب___ه

ومكنت قدمــــاه أى تمكين

راحت عليه المنسايا روحة تركت

ذا الملك والعز تحت المــــاء والطين

وروى الطرطوشي كذلك أن شيخه أبا محمد التميمي

أنشده ببغداد:

لن أبنى ؟ لن أسم الطــــايا ؟

لن أستأنف الشيء الجـــديدا اذا ما صــاد اخواني دفاتا ،
وصرت _ لفقدهم _ فردا وحيدا

أعاين معشرا لهم شـــكول 4 واشـــكول 4 واشـــكول اللحودا

وقد روى الطرطوشى فى كتابه « سراج الملوك » حديثا آخر جرى بينه وبين أحد العراقيين يدل دلالة واضحة على أن هذه الموضوعات بالذات كانت مجال المناقشة دائما بينه وبين أنداده من علماء العراق : موضوعات الحياة الدنيا وقيمتها وزوالها ، والانسان وجهوده ومصيره ، والعبرة المأخوذة من هذا كله .

يروى الطرطوشي طرفا من احدى هذه المناقشات فيقول :

« وها أنا (ذا) أحكى لك أمرا أصابنى ، طيش عقلى وبلبل فكرى ، وقطع نياط قلبى ، فلا يزال يراه حتى يوارينى التراب ، وذلك أنى كنت يوما بالعراق وأنا أشرب ماء ، فقال لى صاحب لى _ وكان له عقل : _ يا فلان : لعل هذا الكوز الذى تشرب فيه الماء أقد كان انسانا يوما من الدهر ، فمات فصار ترابا ، فاتفق للفخارى أن أخذ تراب القبر وضربه خزفا ، وشواه بالنار ، فانتظم كوزا كما ترى ، وصار آنية يمتهن ويستخدم بعد أن كان بشرا سويا يأكل ويشرب ، وينعم ويلذ ويطرب » .

هذه النظرة الفلسفية العميقة الى الانسان وحقيقته ومصيره: كيف خلق ومم خلق؟ وكيف ينتهى والى أين يصير؟ وكيف تنتهى الحياة الى الموت ؟ ثم كيف تتجدد الحياة من الفناء .

هذه النظرة الفلسفية هزت كيان الطرطوشي هزا ، أو على حد قوله هو : « طيشت عقلي وبلبلت فكرى وقطعت نياط قلبي » ، وأدرك ما وراء هذه اللفتة من حقيقة ، فاستطرد في حديثه يؤكدها ويحللها تحليلا يؤكد ايمانه بها ، قال :

« فاذا الذي قاله من الجائزات ، فان الانسان اذا مات عاد ترابا كما كان في النشأة الأولى ، ثم قد يتفق أن يحفر لحده ويعجن بالماء ترابه ، فيتخذ منه آنية ، فتمتهن في البيوت ، أو لبنة فتبنى في الجدار ، وقد يجوز أن يغرس عند قبره شجرة فيستحيل تراب الانسان شجرة وورقا وثمرة ، فترعى البهائم أوراقها ، ويأكل الانسان ثمرها ، فينبت منها لحمه ، وينشر منها عظمه ، أو تأكل تلك الثمرة الحشرات والبهائم ، فبينما كان يقتات صار قوتا ، وبينما كان يأكل صار فبينما كان يأكل صار أكولا ، ثم يعود في بطن الانسان رجيعا فيقذف في بيت الرحاضة ، أو بعرا ينبذ بالعراء ، ويجوز اذا حفر قبره أن تسغى الرياح ترابه ، فتتفرق أجزاؤه في بطون الأودية والتلول والوهاد » .

هذا الحديث الذي ألقى الى الطرطوشى اثناء مقامه فى بغداد ، وهذا التعليق الذي راح يحلل به الحديث ويؤكده فى كتابه « سراج الملوك » يذكرنا بقول الشاعر العربى أبى العلاء المعرى : سر أن استطعت فى الفضاء وويدا

لا اختيالا على رفات العباد

خففت الوطأ ما أظن أديم الأر

 المانى بالذات: تجدد الحياة ، وخروج الميت من الحى ، وانبثاق الحي من الميت .

يذكرنا بالشاعر عمر الخيام ، فهو الذي يقول في « رباعياته » : قد كان هـــذا الدن صبا أســير

مثلى 6 سببته مسدلات الشعور

قد طوقت جيــد حبيب عزيز

رأيت خزافا رحمهاه تدور ،

يجد في صــوغ دنان الخمـور

جمجمة (الشياه) بساق الفقير

ومن العجيب أن الخيام كان معاصرا للطرطوشى ، ترى هل سمع شعره هذا أو نقل اليه أثناء مقامه فى بغداد ، فتأثر به ، وبان هذا الأثر فيما كتبه فيما بعد فى كتابه « سراج الملوك » .

هــــذا سؤال افتراضى أوحى به التشابه الغريب بين كلام الطرطوشي وشعر الخيام ، ولا نستطيع الاجابة عليه الآن لقلة النصوص التي تمدنا بها المراجع ، ولأن المعروف عن حياة الخيام ما زال قليلا غير واضح المعالم .

انطلق اذن أبو بكر الطرطوشي يفكر في هذه اللفتة الفلسفية فيطيل التفكير ، ويحلل فيطيل التحليل ، وراح يعسرض كل الاحتمالات الممكنة التي قد ينتهي اليها الانسان بعد موته ، وراح يكون لنفسه فلسفة خاصة ، بدأ يعتنقها منذ ذلك الحين ، ويصيغ حياته صياغة خاصة تتفق وهذه الفلسفة ، وهي فلسفة الزهد ، والعزوف عن اللذات والشهوات ، والجرأة على كل كبير في سبيل الحق ، وفي سبيل تدعيم أوامر الله سبحانه وتعالى ، فهو ينظر الى كل كبير بهذه النظرة التي لا ترى فيه قوته وسلطانه وجبروته ،

ولكنها ترى فيه قيمته ومصيره ، وأنه لن يكون بعد الموت الا كوزا يشرب فيه الماء ، أو ما يشبه ذلك .

تبدو فلسفته هذه واضحة في الفقرة التي ختم بها حديثه السالف حيث بقول:

« اليس في هذا ما اذهل العقول وطيش الحلوم ومنع اللذات ، وهان عنده مفارقة الأهلين والمال ، واللحوق بقلل الجبال ، والأنس بالوحوش حتى يأتى أمر الله ؟

اليس فى هذا ما صغر الدنيا وما فيها ؟ اليس فى هذا ما حقر الملك عند من بعظمه ، والمال عند من جمعه ؟

اليس في هذا ما زهد في اللذات وسللي عن الشهوات ؟ » .

سيلتزم الطرطوشى اذن ـ منذ يفادر العراق وفيما يقبل من أيامه ـ حياة الزهد والبعد عن مباهج الدنيا ، سيلتزم الزهد لا عبادة وانما تفلسفا .

وقد زار الطرطوشى ـ أثناء مقامه فى العراق ـ مدينة البصرة ، وقضى فيها وقتا ، وتتلمذ هناك على أبى على محمـــد بن أحمد التسترى ، ثم يمم وجهه شطر قطر آخر هو الشام .

ولسنا نعلم على وجه التحديد كم سنة أقام الطرطوشى فى العراق ، ولكننا نستطيع أن نستنتج أنه لم يقم به طويلا ، فنحن نعرف أن عددا كبيرا من شيوخه فى العراق توفوا فى المدة بين سنتى ٧٨} و ٧٩} ه. .

فأبو سعد المتولى ، وأبو عبد الله الدامغاني تو فيا سنة ٧٨ ه. وأبو على التسترى توفى سنة ٧٧٤ ه.

والطرطوشي بدأ رحلته من المفرب سنة ٧٦ هـ .

فلابد اذن أنه وصل العراق في أواخر سنة ٧٧} هـ أو أوائل سنة ٧٨} هـ ، وأنه غادرها سنة ٧٩} هـ أو سنة ٨٠} هـ ، وقد بلغ الثلاثين من عمره .

(ج) في الشام

١ - في بيت القدس وجبل لبنان:

دخل أبو بكر الطرطوشى الشام بعد أن أتم دراسته ، وبعد أن حصل من العلوم ما حصل ، وبعد أن بلغ من النضج الفكرى درجة تؤهله للتدريس لينفع الناس بعلمه ، وبعد أن كون لنفسه فلسفة خاصة قوامها الزهد والسعى للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر :

فالسمة الظاهرة التى تميز أبا بكر الطرطوشى منذ دخل الشام الى آخر حياته أنه عالم زاهد ، بل لعله أقرب ألى الحقيقة أن نقول زاهد عالم ، فأن أبن فرحون يروى فى كتابه « الديباج المذهب » أن بعض الجلة من الصالحين كان يقول:

« الذى عند أبى بكر الطرطوشى من العلم هو الذى عند الناس ، والذى عنده مما ليس مثله عند غيره دنه » .

وقال الحميرى في كتابه « صفة جزيرة الأندلس »: « وزهده اكثر من علمه » .

والذى تجمع عليه المراجع التى ترجمت له أنه قضى الفترة التى عاشها فى الشام يعلم الناس ، فأقبلوا عليه ، وأحبوه ، وأفادوا من علمه ، فعلا اسمه ، وبعد صيته ، وأنه عاش هناك متقشفا عابدا زاهدا منقبضا عن الناس ، اذا أكل أكل فى شقف من الفخار ، وكان اصحاب الحكم والسلطان يسعون اليه والى برة ، ولكنه كان ينصرف عنهم ، ويشتد عليهم فى القول واسداء النصيحة .

قال ابن فرحون ؛

(وسكن الشام مدة ودرس بها ، ولازم الانقباض والجماعة وبعد صيته هناك ، واخد عنه الناس هناك علما كثيرا ، وكان اماما عالما عاملا زاهدا ، ورعا دينا متواضعا متقشفا ، متقللا من الدنيا راضيا باليسير منها ، وتقدم في الفقه مذهبا وخلافا ..

وكان له ـ رحمه الله تعالى ـ نفس ابية ، قيل انه كان ببيت القــدس يطبخ فى شقف ، وكان مجانبا للسلطان معرضا عنه وعن اصحابه ، شديدا عليهم مع مبالفتهم فى بره » .

ووصفه القاضى أبو بكر محمد بن عبد الله المعافرى بالفضل والعلم والزهد في الدنيا ، وروى عنه أنه كان يقول:

« اذا عرض لك أمران : أمر دنيا وأخرى ، فبادر بأمر الأخرى يحصل لك أمر الدنيا والأخرى » .

ويبدو أن نفسه الأبية وصراحته والتزامه القول الحق أثارت ضده بعض الشائئين والحاسدين من أهالى بيت المقدس ، فسعوا به لدى حاكمها ، ولكنهم لم يستطيعوا أن ينالوا منه ، واستدعاه الحاكم اليه ، فلم يأبه لدعوته ، ورفض أن يذهب ، قال ياقوت في ترجمته له :

« وكانت له نفس أبية ، وكان ببيت المقدس يطبخ في شقف ، وكان مجانبا للسلطان ، استدعاه فلم يجبه ، وراموا الغض من حاله فلم ينقصوه قلامة ظفر » .

والطرطوشى الذى كان يجانب السلطان وينأى عنه كان يقوم الليل متعبدا أثناء مقامه فى بيت القدس ، يشجيه الصوت يسمعه فى هدوء الليل يناجى الله ويلوم النفس والقلب أن أغفيا أو توانيا

عن ذكر الله ، يروى الطرطوشي عن نفسه أنه كان نائما في بيت المقدس ، فسلمع صوتا حزينا ينشد :

أخروف ونوم ؟! إن ذا لعجيب!

ثكلتك من قلب ، فأنت كذوب

أما وحلال الله 6 لو كنت صلحادقا لل كان للاغماض منك نصيب

يقول الطرطوشي _ رحمه الله _ : « فأيقظ الصوت النوام وأبكي العيون » .

ويذكر الضبى فى « بغية الملتمس » ان من بين الدوافع التى دفعت الطرطوشى لزيارة بيت المقدس رغبته فى مقابلة أبى حامد الفزالى ، فقد فاتته رؤيته فى بغداد _ كما سبق أن أشرنا _ ، لأن الطرطوشى ترك بغداد حوالى سنة . ٨٨ هـ قبل أن يصلها الفزالى وقبل أن يعين مدرسا بالنظامية ، فقد عين بها فى سنة ٤٨٤ هـ .

وكان الفزالى فى هذه الفترة يعانى من محنته النفسية ، ويقضى وقته ... سواء فى دمشق أو فى بيت القدس ... منعزلا عن الناس فى مئذنة الجامع الأموى بدمشق أو فى قلل الجبال بتعبد وحده ، ويحاول أن يصل الى الحقيقة عن طريق التصوف والذوق وذكر الله بعد أن عجز عن الوصول اليها عن طريق العقل والفلسفة وآراء الفقهاء واصحاب اللل والنحل المختلفة .

يقول الغزالى نفسه في كتابه « المنقذ من الضلال » يصف تجربته وأحواله أثناء مقامه في الشام :

« دخلت الشام واقمت بها قريبا من سنتين ٤٠ لا شغل لى الا العزلة والخلوة والرياضة والجاهدة ٤ اشتفالا بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب لذكر الله ٤ كما كنت حصلته من علم الصوفية ٤ قكنت

أعتكف مدة في مسجد دمشق ، أصعد منارة السجد طول النهار ، وأغلق بابها على نفسى . . الخ » .

وقد شاهده في هذه الفترة القاضى الاشبيلى أبو بكر بن العربى ـ تلميذ الطرطوشى ـ ووصف احواله وتجواله في البرية ، وجرت بينه وبينه مناقشة ، قال ابن العربى :

« رأيت الامام الفزالى فى البرية وعليه مرقعة ، وعلى عاتقه ركوة ، وقد كنت رأيته ببعداد يحضر دروسه أربعمائة عمامة من أكابر الناس وأفاضلهم يأخذون عنه العلم .

قال: فدنوت منه ، وسلمت عليه ، وقلت له: يا امام اليس تدريس العلم ببغداد خيرا لك من هذا ؟! قال: فنظر الى شذرا وقال:

« لما طلع بدر السعادة فى فلك الارادة ، وجنحت شمس الوصال فى مفارب الوصول :

ترکت هوی لیلی وسیعدی بمعزل ،

وعدت الى مصحوب أول منــــزل ونادت بى الأشواق : مهلا ، فهذه

منـــازل من تهوی ، رویدك فانزل

غزلت لهم غزلا رقيقا ، فلم اجــــد

لغزلی نساجا ، فکسرت مغرری

هذه كانت أحوال الفزالى عندما فكر الطرطوشى فى رؤيت ومقابلته ، ولهذا لم يكد يعلم بمقصد الطرطوشى ووصوله الى بيت المقدس حتى بعد وترك المدينة ، ولم يمكنه من مقابلته ، هكذا فكر الضبى تلميذ أبى بكر بن العربى (وهـــذا الأخــي تلميذ الطرطوشى) ، قال فى كتابه « بغية الملتمس » :

«ثم انصرف (أى الطرطوشى) يريد مص ، وكان له غرض فى الاجتماع مع أبى حامد الغزالى ، فجعل طريقه على بيت المقدس ، فلما تحقق أبو حامد أنه يؤمه ، حاد عنه ، ووصل الحافظ أبو بكر فلم يجده » .

واقام الطرطوشي مدة في بيت القـــدس _ كما أسلفنا _ ، ثم تركها الى جبل لبنان فقضي به مدة أخرى ، يقول الضبي مستأنفا حديثه :

« فقصد جبل لبنان وأقام هناك مدة » .

٢ ـ في أنطاكية:

ولسنا نعرف أى المدن الشسامية زار الطرطوشى - غسير بيت المقدس وجبل لبنان - ولكن من المرجع أنه زار دمشق وأقام بها ، وإنه طوف فى معظم مدن الشام الأخرى ، وأنه ذهب فى تطوافه الى أقصى الشمال ، فزار حلب ، ثم انحدر منها الى أنطاكية ، فهو يروى فى كتابه « سراج الملوك » حادثة حدثت له ، يفهم منها أنه زار الطاكية ، فيقول :

« كانت معى نفقة وافرة فى هميان على وسطى ، وكنت اسمع المسافرين يقولون : من نام بالليل فى الفيافى وله نفقة على وسطه فليحلها ، فان اللصوص اذا كابدت الخلق يبتدرون أوساطهم » .

فخرجت من بلاد السويدية الى انطاكية - وهى اذ ذاك حرب للروم - ، فسرينا ليلتنا وأصبحنا في باب انطاكية ، فأخذتنى عينى ، وحالت الهميان ، ونمت ، ولم أستيقظ الا ضحوة النهار ، فاستيقظت ومددت يدى الى الهميان فلم أجده ، فجعلت أنظر الى القافلة ، والتفت الى الناس ، وقد أسقط في يدى ولم يبق لى حلة .

فاسترجعت ورفعت أمرى الى الله تعالى ، واذا رجل من أهل القافلة متلفتا الى ، فوقع وجهى فى وجهه ، فاذا هو يضحك لما راى ما بى ، فقال :

- « مالك أنها الفقيه ؟ » .

قلت: « خير » .

إفقام الى وقال:

- « خذ هميانك عافاك الله » .

فسألته كيف ظفر به ؟

فقال: « رأسك قد تدحرج ذراعين أو ثلاثة » . والتفت فرأيت سوادا في الموضع الذي كنت فيه نائما ، فسرت اليه وأخذته ، فاذا هو الهميان .

رحمة الله ورضوانه عليه » .

وقد نستنتج من هذا النص شيئا آخر هاما ، وهو ان الطرطوشي كان في انطاكية في أواخر سنة . ٩٩ هـ ، فهو يقول عند ذكره لها : « وهى اذ ذاك حرب للروم » ، وهو يقصد بالروم هنا الصليبيين ، فان الحملة الصليبية الأولى وفدت الى الشرق في سنة . ٩٩ هـ ، واستولت على مدن الشام الشمالية الواحدة بعد الأخرى ، وظلت تحاصر مدينسة أنطاكية نحو ثمانية شهور الى أن سقطت في جمادى الأولى سنة ٤٩١ هـ .

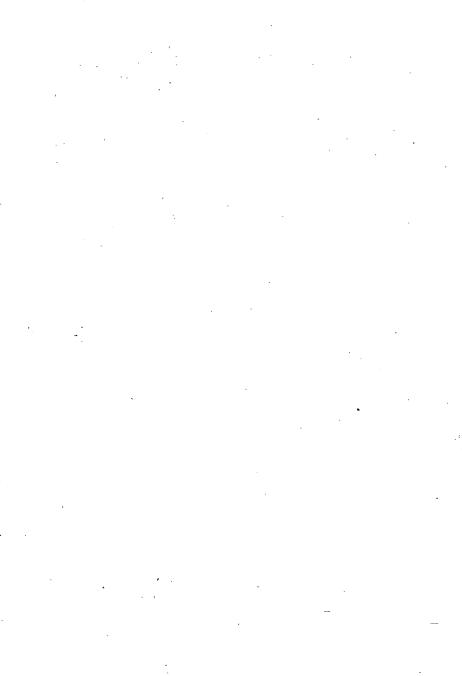
وأغلب الظن أن هذا الحادث الخطير واستيلاء الصليبيين على سواحل الشام كلها وبيت المقدس فى نفس السنة هو الذى دفع الطرطوشى دفعا الى ترك الشام ، وأنه غادرها منذ ذلك الحين ، وأتجه الى مصر ، ونزل أول ما نزل فى مدينة رشيد ثم غادرها الى مدينة الاسكندرية حيث اتخذها مقرا له .

ومما يقوى استنتاجنا (١) أن المراجع تذكر أن الطرطوشى وصل مصر والوزير بها هو الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى ، والأفضل ولى الوزارة بعد وفاة أبيه في سنة ٤٨٧ هـ .

فاذا صبح استنتاجنا يكون الطرطوشى قد وصل الى الشام حوالى سنة . ٨ هـ ، وهو فى الثلاثين من عمره ، وغادرها حوالى سنة . ٩ ك هـ ، وهو فى الأربعين من عمره ، بعد أن قضى فيه عشر سنوات يطوف فى مدنه الكبرى ، ويستزيد من التحصيل ، ويشتغل معظم وقته بالعبادة وذكر الله وبالتدريس حتى أصبح له تلاميذ كثيرون يعجبون به وبعلمه ، ويتسابقون الى حلقات دروسه ، فقد قال ياقوت فى ترجمته له :

« وسكن الشام مدة ، ودرس بها ، وبعد صيته ، واخذ عنه الناس هناك علما كثيرا » .

⁽۱) ويؤكد هذا الاستنتاج كذلك أن المؤرخ الأندلسى ابن خير ذكر في كتابه « فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدواوين » ص ٥٩ أنه قرأ على القاضى أبى بكر محمد بن عبد الله بن العربى كتاب « مختصر تفسير الثعالبى » الذي ألفه أبو بكر الطرطوشى ، وأن ابن العربى ذكر أنه استمع لأستاذه الطرطوشى وهو يدرس هذا الكتاب في رمضان سنة ٨٧) هد في « مهد عيسى بالفسيفساء من المسجد الأقصى » ، فكأن الطرطوشى كان مقيما يدرس في بيت المقدس الى أواخر سنة ٨٧) هد .



الباب الثالث

الطرطوشي في مصر

- 1 _ الاسكندرية الرباط وباب المفرب .
 - ٢ ـ في مدينة رشيد أولا .
- ٣ _ الطرطوشي يصل الى الاسكندرية اثر محنة سياسية علمية .
 - ٤ ــ موعظة الطرطوشى للوزير الأفضل شاهنشاه .
 - ه _ الطرطوشي وابن حديد _ قاضي الاسكندرية .
- ٦ الأفضل يستدعى الطرطوشى ويحدد اقامته فى جامع الرصد
 بالفسطاط .
 - ٧ ــ الطرطوشتي والوزير المامون البطائحي .

الطرطوشي في مصر

١ - الاسكندرية الرباط وباب المغرب:

كان لموقع مدينة الاسكندرية الجغرافي أثر كبير في توثيق العلاقات بينها وبين المغرب والأندلس ، فالاسكندرية كانت ثغرا من الثغور الاسلامية الهامة ، وكانت رباطا كبيرا ترابط فيها ـ منذ دخلها المسلمون ـ حامية مسلحة كبيرة ، فقد خصص عمرو بن العاص ربع جيشه لرباط الاسكندرية ، يقيمون بها ســـــــــــــــــــة أشــــهر ، مستبدلون بربع آخر .

وكان عمر بن الخطاب يرسل كل سنة غازية من أهل المدينة ترابط في الاسكندرية ، وذلك لأن العرب لم يكونوا يأمنون عليها من غارات العدو بعد أن نقض الروم الصلح مرتين ، وحاولوا الهجوم عليها واستردادها .

وكتب عثمان بن عفان الى عبد الله بن سعد بن أبى السرح _ بعد نقض الروم:

« قد علمت كيف كان هم أمير المؤمنين بالاسكندرية ، وقد نقضت الروم مرتين ، فألزم الاسكندرية رابطتها ، ثم أجر عليهم أرزاقهم ، وأعقب منهم في كل سيستة أشهر » .

وقد بلغت رابطة الاسكندرية فى عهد معاوية بن أبى سلفيان سبعة وعشرين ألف جندى ، منهم عشرة الاف من أهل الشام ، وخمسة الاف من أهل الدينة .

ومن الأقوال المأثورة :

« أربعة أبواب من الجنة مفتحة في الدنيا: الاسكندرية ، وعسقلان ، وقروين ، وجدة » .

ومنها: أن الاسكندرية «كنانة الله ، يحمل فيها خير سهامه » . وقال عبد الله بن مرزوق الصدفي :

« لما نعى الى ابن عمى خالد بن يزيد ـ وكان توفى بالاسكندرية ـ لقينى موسى بن على بن رباح ، وعبد الله ابن لهيعة ، والليث بن سعد متفرقين ، وكلهم يقولون : اليس مات بالاسكندرية ؟ فأقول : بلى ، فيقولون : هو حى عند الله يرزق ويجرى عليه أجر رباطه ما قامت الدنيا ، وله أجر شهيد حتى يحشر على ذلك » .

فالسلمون الأول كانوا يعتقدون أن الاقامة في الرباطات والحياة في الثغور نوع من الجهاد ، ومن يموت اثناء مقامه بها فهو شهيد ، ولهذا جذبت الاسكندرية اليها في العصور الاسلامية الأولى عددا كبيرا من المسلمين ، ومن العلماء بوجه خاص ، ومن علماء المغرب والاندلس بوجه أخص .

كما أن مسلمي المغرب والأندلس كانت تتطلع نفوسهم وتهفو ارواحهم دائما الى المشرق عنبت الدعوة الاسلامية ، ومقر البلدان المقدسة : مكة والمدينة وبيت المقدس ، وموطن العلم الاسلامي ، ودار العلماء والمعاهد العلمية المختلفة ، فهم كانوا في شوق دائم الى الرحلة الى هذا المشرق ، وهدفهم الأول اداء الفريضة والحج الى بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول عليه السلام ، والالمام بالمساجد ومعاهد العلم ، ومقابلة العلماء والأخذ عنهم .

وكان المحط الأول لرحلتهم المشرقية هو مدينة الاسكندرية الرباط والثفر الاسلامى الكبير - ، يصلون اليها بعد رحلة طويلة شاقة مضنية عبر الصحراء حينا ، وعلى ظهور السغن حينا آخر ، وهم كانوا اذا وصلوها أقاموا فيها فأطالوا الاقامة ، طلبا للراحة من عناء السفر ، ولزيارة معالها التاريخية التى كانت تبهر أنظارهم وقتذاك ، مثل المنارة - احدى عجائب الدنيا - ، وعمود السوارى ، والمسلات ، والقصور ، والكنائس القديمة ، والأسوار

الشاهقة ، وما يتخللها من أبراج وحصون وأبواب ، وأخيرا المساجد التي بنيت في العصر الاسلامي الأول لتكون معابد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ومدارس لنشر العلم .

وكان هؤلاء المفاربة والأندلسيون يستأنفون رحلتهم بعد ذلك فيؤدون الفريضة ، وقد تشوق البعض منهم الرحلة ومباهجها ، فيتنقلون في مدن الشرق وأمصاره الكبرى (مثل بغداد ودمشق وحلب والموسل وبيت المقدس وغيرها) لزيارتها والافادة من علمائها ، ثم يعودون بعد هذه الرحلة الطويلة الى الاسكندرية ليسستأنفوا منها طريق العلوق الى بلادهم ، ولكن كثيرين منهم ليسستأنفوا منها وطلاب العلم للائوا يؤثرون البقاء في الاسكندرية واتخاذها وطنا ودار إقامة ، لينالوا شرف المقام في هذا الثفر والرباط العظيم ، وليستزيدوا من علم يطلبونه ، او لينشروا علما حصاوه واتقنوه .

وقد زادت صلة الاسكندرية بالمغرب توثقا منذ أتى الفاطميون بحيوشهم من المفرب وفتحوا مصر واتخدوها مقر خلافة ، فقد أصبح المفرب منذ ذلك الفتح ولاية تابعة لمصر الفاطمية ، ونتيجة لهذا كثرت رحلات المفاربة والأندلسيين الى مصر ، والى الاسكندرية بوجه خاص .

ورغم أن المذهب الرسمى للدولة فى العصر الفاطمى كان هو المذهب الشبيعى ، ورغم أن الدولة بذلت جهودا كبيرة لنشر هذا المذهب بين المصريين جميعا ، فقد ظلت الاسكندرية مدينة سنية ، وكان المذهب المنتشر بين السكندريين والمعمول به بينهم هو مذهب الامام مالك ، وكذلك انتشر هذا المذهب فى المغرب وبين المفاربة .

ومن كبار هؤلاء العلماء المالكية الذين رحلوا من المغرب والأندلس الى المشرق ثم اتجهوا الى الاسكندرية واستقروا بها في القرن الخامس الهجرى - أى من العصر الفاطمي - واتخذوها وطنا ودار مقام لهم فقيهنا وعالمنا الصوفى الكبير أبو بكر الطرطوشي .

٢ _ في مدينة رشيد أولا:

عرفنا من قبسل أن فقيهنا أبا بكر الطرطوشى اتخد سمت المتصوفة منذ كان يقيم فى بغداد ، وأنه أقبل على حياة كلها زهد وتقشف وعبادة وذكر لله حتى وصفه من ترجموا له بأنه عسالم متصوف .

ولهذا نراه يقبل ـ أثناء مقامه فى الشام ـ على هذا النوع من الحياة ، ويحاول أن يتعرف على انداده من الزاهدين العابدين ، فممن تعرف اليهم أثناء مقامه فى جبل لبنان رجل من الزهاد يسمى عبد الله السايح ، قال الضبى :

« فقصد جبل لبنان وأقام هناك مدة وصحب به رجلا يعرف بعبد الله السايح من أولياء الله المنقطعين الى الله تعالى » .

ويبدو أن الطرطوشي كان يعتز بصداقة هذا المتعبد الزاهد وانه عقد النية على مصاحبته ، فانه بعد أن ضاق بالقام في الشام اثر استيلاء الصليبيين على معظم مدنها ، وعقد النية على الرحيل الى مصر عرض على صفيه وصديقه الشيخ عبد الله السايح أن يرحل معه ، ولكن الشيخ رفض واحتج بأنه يعيش حيث يعيش في المباح من ثمر الأشجار ويأكل من الحلال وبذلك يتمكن من التفرغ العبادة ، ولا يضمن أن يجد مكانا آخر تتوفر فيه هذه الشروط ، قال الضبى :

«ثم أراد الحافظ أبو بكر أن يقصد مصر ، فعرض على أبى محمد السايح صحبته والمشى معه ، وقال له : انت ها هنا بمعزل ولا تلقى أحدا ولا يلقاك ، وأن مت لم تجد من يواريك ، وفي مخالطة الناس ومقابلتهم ونشر العلم وحضور الجماعة في الجمعة ما لا يخفى عليك ، فقال له عبد الله : أنا ها هنا آكل الحلال ، وأعيش في

المباح َ دون تكلف (١) _ من ثمر هذه الأشجار ، ولا أجد في غير هذا الموضع من المباح ما أجد فيه » .

فالطرطوشى يلتزم بما يلتزم به المتصوفة من اقبال على الزهد والتقشف والعبادة وذكر الله ، ولكنه لا يؤمن بما يؤمن به بعضهم من العزلة والبعد عن الناس بل هو يرى أن الخير كل الخير في مخالطة الناس ومقابلتهم ونشر العلم لهذا لم يزل بصديقه السايح يحاوره ويحاول أن يقنعه بالرحلة معه الى مصر ، فقال له انه يعلم أن بمصر مدينة تسمى رشيد فيه من المباح الذى ينشد الملح والحطب ، وأنهما يستطيعان أن يجمعا من هذين المباحين ما يمكنهما من العيش .

وكان الشيخ عبد الله يعلم أن صديقه الطرطوشي رجل فقيه يشتغل بالتدريس ويحب أن ينفع الناس بعلمه ، والناس تقبل دائما عليه ، فأعلن لصديقه خوفه أن يدفعه هذا النوع من الحياة الى البعد عنه ومفارقته ، ويكون بذلك قد تجشم مشقة الانتقال من لبنان الى مصر دون مبرر ، ولكن الطرطوشي طمأنه وعاهده على أن لا يفارقه أبدا ، روى هذا الحوار الضبي في ترجمته للطرطوشي ، قال :

« فقال له الحافظ أبو بكر : ان بقطر (٢) مصر موضعا يعرف برشيد ، فيه شيئان مباحان : الملح والحطب ، نقيم به ويكون عيشنا من هذين المباحين . فقال له عبد الله : أنت لا يتركك الناس ، وأفارق

⁽١) الاصل " تقلف ،

⁽٢) في الأصل : « أن تنظر مصر » ولا معنى لها ، وما أثبتناه قراءة ترجيحية يستقيم بها المعتى .

موضيعى (ثم تفارقنى) (١) وأفارقك ، فعاهده أن لا يفارقه .

وركبا الطريق الى مصر حتى وصلا الى رشيد-، واقاما هناك اذا احتاجا الى قوت جمعا (٢) من حطب أو ملح فباعا ما يحملانه من ذلك على ظهورهما وتقوتا شمنه ».

٣ ـ الطرطوشي يصل الى الاسكندرية اثر محنة سياسية علمية:

كانت الاسكندرية _ عند وصول الطرطوشي بها _ وشيكة الخروج من أزمة بل ازمات خطيرة ، بدات بالمجاعة الكبرى التي حدثت في عهد الخليفة المستنصر نتيجة لقصور فيضان النيل لمدة سبع سنوات ، فاشتد الفلاء ، وعدمت الفلال ، وانتشر الوباء حتى عم مصر كلها ، وضاعت هيبة الخليفة والدولة ، وانتشرت الفتن في أنحاء مصر ، فاستعان الخليفة المستنصر بواليه على عكا أمير الجيوش بدر الجمالي ، فاستدعاه اليه ، وعينه وزيرا ، وعهد اليه بمعالجة الأزمة والقضاء على المشاغبين ومثيرى الفتن .

وبدا بدر الجمالى فى سنة ٢٦٧ هـ بالبلاد الواقعة شرقى فرع دمياط ، وتتبع المفسدين وقضى عليهم ، ثم انتقل الى البحرة والاسكندرية ، وكانت طائفة « الملحية » ـ وهى احدى طوائف الجيش الفاطمى ـ قد اثارت الفتنة فى المدينة ، وأعلنت العصيان ، فحاصر بدر الجمالى الاسكندرية أياما الى أن استولى عليها عنوة وقتل من « الملحية » عدة كثيرة .

وفى سنة ٧٧} هـ - أى قبل وصول الطرطوشى الى الاسكندرية بنحو ثلاثة عشر عاما - خرج على بدر الجمالى ابنه الأوحد ، وانضم اليه جماعة من العسكر والعربان ، ولجأ الى مدينة الاسكندرية

⁽١) أضفنا هاتين الكلمتين ليتضح المعنى •

^{. (}٢) الأصل: « حوَجا » •

وتحصن بها ، فسار اليه أبوه ، وحاصره مدة ، وألح عليه بالقتال حتى هزمه ودخل المدينة .

وعند موت الخليفة المستنصر في سنة ٨٧ هـ ـ أى قبل وصول الطرطوشي بنحو ثلاث سنوات ـ بادر وزيره الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي فأجلس أبا القاسم أحمد ـ أصفر أولاد المستنصر ـ على عرش الخلافة ، فغضب الابن الأكبر نزار وفر الى الاسكندرية وفي صحبته ابن مصال أحد قواد الدولة .

وفى الاسكندرية اتصل نزار بالأمير افتكين _ والى المدينة _ ووعــده أن يوليه الوزارة ان هو وقف الى جانبه ، فاستجاب أفتكين لدعوته ، واقنع سكان الاسكندرية بمبايعته ، ولقبه بالمصطفى لدين الله .

وخرج الوزير الأفضل شاهنشاه بجيش من القاهرة ، واتجه الى الاسكندرية ، وجرت بين الفريقين حروب انتصر فيها نزار ، وعاد الأفضل الى القاهرة ، وقوى أمر نزار ، واستولى على بلاد الوجه البحرى .

ولكن الأفضل جهز جيشا جديدا ، وحاصر الاسكندرية حصارا شديدا ، فاشتد الضيق بنزار وصحبه ، فجمع ابن مصال ماله وفر في البحر الى بلاد المغرب ، ففت ذلك في عضد نزار ، وانتهى الأمر بهزيمته ، ودخل الأفضل الاسكندرية ، وقبض على نزار ، وأرسله الى القاهرة حيث قتله بها ، واستقر أبو القاسم أحمد خليفة ولقب بالمستعلى بالله ، وانقسمت الشيعة الاسماعيلية منذ ذلك الوقت الى فرقتين :

_ الاسماعيلية النزارية ، والاسماعيلية المستعلية .

وكان هذا الانقسام المذهبي من أهم الأسباب التي أدت الي أضعاف الدولة وانحلالها وسقوطها بعد ذلك .

كان لهذه الحوادث جميعا ... دون شك ... أثر في تخريب المدينة ،

بدليل قول القريزى عند كلامه على خروج الأفضل لقتال نزار في الاسكندرية سنة ٨٨٤ هـ:

« وحاصرها ونصب عليها الجانيق ، وألح عليها بالقتال ، ومنع عنها الميرة » .

وأصاب الاسكندرية من هذا النزاع ومن هذا الحصار والقتال كثير من الهدم والتخريب ، وانتقم الأفضل - بعد دخوله المديئة - من أهليها انتقاما شديدا لتأييدهم نزارا ومبايعتهم له بالخلافة ، ويبدو أن انتقامه كان عنيفا صارما حتى انه قتل عددا من علمائها المالكيين ، فتعطلت الشعائر الدينية ، ولم تقم الجمعة في مساجدها .

فان ابن فرحون يقول في ترجمته للطرطوشي ان أبا الطاهر ابن عوف قال:

« وَكَانَ نَزُولُه (أَى الطُرطُوشَى) بالاسكندرية باثر قتل الأمير بها علماءها ، فوجد البلد عاطلا من العلم ، فأقام بها وبث علما جما » .

وأكد هذا الضبى في كتابه « بغية الملتمس » ، فبعد أن وصف نوع الحياة التى كان يحياها الطرطوشي مع صفيه عبد الله السايح في مدينة رشيد ، قال :

« وبقيا هناك (أى فى رشيد) مدة الى أن قتل العبيدى صاحب مصر جماعة من فقهاء أهل الاسكندرية لسبب يطول شرحه ، ولم يبق من يشار اليه ، وسمع أهل الاسكندرية بكون الفقيه برشييد فركب اليه قاضيها . . الخ » .

هاتان روایتان وثیقتان تنسب اولاهما الی ابی طاهر بن عوف تلمید الطرطوشی الأثیر لدیه وخلفه فی تصدر العلماء بعد وفاته ، وتنسب ثانیتهما الی الضبی تلمید تلمید الطرطوشی أبی بكر

ابن العربى ، وكلتاهما تؤكدان ما سبق أن قررناه من أن الأفضل قد أنتقم من أهالى الاسكندرية بعد أنتصاره على نزار ، وقتلل للعدد الكبير من أعيانها وعلمائها ، بحيث لم يبق في المدينة كبير من علمائها ، وأحس أهلوها بحاجتهم الماسة الى فقيه كبير يتصدر حلقات الدرس في مساجدها ليفقه الناس في أمور دينهم ، ونمى اليهم خبر وجود أبى بكر الطرطوشي بالقرب منهم في مدينة رشيد ، فكونوا وفدا من أعيانهم وفقهائهم يتقدمه قاضي المدينة أبن حديد ، وانتقلوا الى رشيد .

وفى رشيد ظلوا يبحثون عن أبى بكر الطرطوشى الى أن راوه مقبلا عليهم من اطراف المدينة وفى صحبته الشيخ الزاهد عبد الله السايح ، وكل منهما يحمل على ظهره حزمة من الحطب .

وألقى الطرطوشى ما على ظهره ، وجلس يستمع الى رجال الوفد السكندرى ، فأخبروه بما وصلت اليه أحوال المدينة ومجالس العلم بها ، والقوا اليه برغبتهم فى أن ينتقل معهم الى الاسكندرية ليفيدوا من علمه .

وتجددت المشكلة القديمة ، فالطرطوشى لا يريد مفارقة اخيه السايح والشيخ الزاهد لا يريد مفادرة رشيد ، فهو فى الاسكندرية لا يستطيع أن يعيش فى الحلال وياكل المباح ــ كما يفعل فى رشيد .

ولكن رجال الاسكندرية لم يعجزوا عن ايجاد حل لهدفه المشكلة ، فقالوا للشيخ عبد الله ان صاحب صقلية يؤدى لأهل الاسكندرية جزية في كل سنة مقدارها ثلاثمائة قفيز من الشعير ، ووعدوه أن يخصصوا له هذه الجزية ليقتات منها ، بهذا أقنعوه ، وبهذا تيم الاتفساق ، وانتقل الرجلان الطرطوشي والسايح الى الاسكندرية .

روى هذه القصة كلها الضبى بشيء من التفضيل قال:
« وسمع أهل الاسكندرية بكون الفقية برشيد ،

فق_ال لهم: قد علمت ذلك ، ولكنى لا أفارق صاحبى هذا بوجه _ وأشار الى عبد الله السايح _ ، لانى سقته من موضعه ، وعاهدته أن لا أفارقه ، فدونكم (هو) ، فأن ساعدنى (٤) ، فأنا ناهض معكم .

فكلموه ، فقال: أنا لا أمنعه ، لكنى أقيم هنا . فقال الحافظ أبو بكر: وأنا لا أفارقه .

فتضرعوا الى عبد الله ، فقال لهم : أنا هنا أعيش في الحلال وآكل المباح ، ولا أجد هذا عندكم .

فقال له القاضى: ان صاحب صقلية ـ دمره الله ـ يؤدى جزية في كل عام لأهل الاسكندرية ثلاثمائة قفيز من الشعير ، وكذا وكذا ، فخذ الشعير تتقوت (٥) به وتصرفه في منافعك .

⁽١) الأصل : ابن حديدة ، والصحيح ما البتناه .

 ⁽۲) كذا بالأصل المنشور ، ولعل « الشعرا » أسم كان يطلق على صاحية من ضواحي رشيد ، أو لعلها « العراء » وقد أخطأ ناشر الكتاب في قراءتها .

⁽٣) بياض بالأصل ، ولعل المقصود أن المدينة أصبحت عاطلة من العلماء والتعليم ، كما سبق أن ذكر أبن فرحون والضبى فيما نقلناه عنهما .

⁽٤) الأصل : « فدونكم بأن ساعدني » ولا يستقيم بها المعنى ٠

⁽ه). الأصل : « تتفون » ولا معنى لها ٠

فقال: أنا لا أحتاج الى أكثر من رغيف فى كل ليلة . فضمنوا له ذلك ، وأقبلا معهم الى الاسكندرية ، ووفوا لأبى محمد السايح بما قالوه ، وصنعوا له من الشعير عدة أرغفة ، ووضعوها له فى حبل ، فكان يفطر كل ليلة منها على رغيف ، ويلزم بيته لا يبرح منه .

واشتمل أهل الاسكندرية على ألحافظ أبى بكر ، وقعد للتدريس ، ونفع الله به كل من قرأ عليه ، وانتشر علمه » .

استقر بالطرطوشى المقام فى الاسكندرية واتخذها وطنا ثانيا ودار مقام وصدق عليه قول الشاعر :

والقت عصباها واستقر بها النوى

كما قر عينا بالاياب المسسسافر

وبدأ يدرس وينشر العلم على مذهبه _ مذهب مالك _ وتقاطر الناس على حلقاته يأخذون عنه ويقرأون عليه ويفيدون من علمه ، وقد وصف هو الحالة في الاسكندرية عند وصوله اليها وما احدثه بها ، قال:

« أن سسالنى الله تعالى عن المقام بالاسكندرية لما كانت عليه فى أيام الشيعة العبيدية من ترك اقامة الجمعة ومن غير ذلك من المناكر التى كانت فى أيامهم أقول له: وجدت قوما ضلالا فكنت سبب هدايتهم » .

ولم يلبث الطرطوشى فى الاسكندرية الا قليلا حتى عرف واشتهر ، وجذب الطلاب والعلماء الى حلقات دروسه ، وتزوج بعد قليل من سيدة موسرة من نساء الاسكندرية ، فأطلقت يده فى أموالها ، وتحسنت أحواله ، ووهبته دارا من أملاكها ، جعل سكنه معها فى الدور الأعلى ، واتخذ من الدور الاسفل مدرسة يلقى فيها دروسه ، ويستضيف فيها طلاب العلم من الغرباء الوافدين على الاسكندرية .

كانت هذه السيدة التى تزوجها أبو بكر الطرطوشى سسيدة قاضلة تقية دينة من بيت من اكبر بيوت الاسكندرية وقتذاك فضلا وعلما وجاها وثروة ، بيت بنى عوف ، فهى خالة فقيه الاسكندرية وكبير علمائها ابى الطاهر بن عوف _ تلميذ الطرطوشى وخليفته فيما بعد _ ، وكان لهذه السيدة ابن من زوج سابق ، عرف بالطيش والرعونة ، وقد آلمه زواج أمه من أبى بكر الطرطوشى ، ولعله آلمه كذلك أن ينتقل جزء من ثروة أمه الى هذا الزوج الجديد ، فأضمر في نفسه شرا ، وأعد خنجرا ، ودخل في الليل على الفقيه أبى بكر حيث يقيم مع أمه يريد قتله ، ولكنه وجد الزوجين وكلا منهما منفردا يصلى ، وفي طريقه الى الفقيه اصطدم بسارية من سوارى منفردا يصلى ، وفي طريقه الى الفقيه اصطدم بسارية من سوارى وكانت توبة الابن على يديه ، وانجى الله الفقيه من هذه المحنة ، وكانت توبة الابن على يديه ، روى الضبى في « بفية الملتمس » هذه القصة بالتفصيل ، قال :

« وكانت بالاسكندرية امرأة متعبدة هى خالة أبى الطاهر بن عوف ، فخطبته وتزوجها ، وبنى بها فى المدرسة .

وكان لها ابن من أهل الدنيا كثير التخليط ، فصعب ذلك عليه ، وعمد الى خنجر ، واستتر فى المدرسة ، فلما انهار الليل قصد البيت الذى كانت فيه أمه مع الفقيه ، فلم يجد فيه أحدا ، ووجد كل واحد منهما قد قام الى ورده ، وسمع صوت الفقيه يقرأ فى الصلاة فأم الصوت وخنجره فى يده ، فلما قرب منه وهو عازم على قتله ، حالت بينه وبينه سارية من سوارى مساكن المدرسة ، وضرب فيها بوجهه ، وخر مفشيا عليه ، والفقيه لا يشعر .

فلما طلع الفحر نزل الى المدرسة فصلى الصبح ودرس ، وتصرفت زوجه فى اثناء ذلك فوجدت ابنها متجدلا لا يعقل ، فكلمته فلم يكلمها . فلما فرغ الفقيه من التدريس صعد الى منزله ، فأعلمته زوجه بمكان ابنها ، فصعد نحوه فوجده على تلك الحال ، فجر يده على وجهه وتفل وتكلم بكلمات ، ففتح عينيه ، فلما أبصر الفقيه قال له : هات يدك ، فأنا تائب الى الله تعالى ، والله لا عصيته بعد اليوم أبدا ، ولا تركتك في هذا الموضع ، انتقل الى دار أهلك فاسكنها بفضل .

وحسنت توبة الابن بعد ذلك » .

پ موعظة الطرطوشي للوزير الفاطمي الأفضل شاهنشاه

وبعد أن استقرت الحياة بالطرطوشى فى الاسكندرية خرج لزيارة العاصمة القاهرة ، وهناك ذهب لزيارة الوزير الكبير صاحب السلطان الأعلى وقتذاك الملك الأفضل شاهنشاه .

ذهب لزيارته بعد أن سمع عن جبروته وقوته وسلطانه ، لا ليسأله منحة أو عطية ، ولا ليقدم له المديح ويشيد بذكره ، بل لينصحه نصيحة العلماء المخلصين ، وليعظه الموعظة الحسنة ، وليطلب اليه الرفق بالرعية ، واشاعة العدل بينهم ، وفتح أبواب قصره لكل شاك أو متظلم .

ولم يكن هذا غريبا من الطرطوشى الرجل العالم الزاهد الجرىء الذى لا يخشى فى الحق لومة لائم ، والذى لا يخاف صاحب السلطان ولا يهابه ، فهو الذى وصفه ابن فرحون بأنه كان أبى النفس ، والذى وصفه المقرى بأنه كان قوالا للحق .

وقد أثبت الطرطوشي موعظته هذه للأفضل في كتابه « سراج الملوك » قال :

« فلما دخلت على ملك مصر _ وهو الأفضـــلُ ابن أمير الجيوش _ فقلت : سلام عليكم ورحمة الله

وبركاته ، فرد السلام على نحو ما سلمت ردا جميلا ، وأكرم أكراما جزيلا ، وأمرنى بدخول مجلسه ، وأمرنى بالجلوس فيه ، فقلت :

- أيها ألملك: أن الله سبحانه وتعالى قد أحلك محلا عاليا شامخا ، وأنزلك منزلا شريفا باذخا ، وملكك طائفة من ملكه ، وأشركك فى حكمه ، ولم يرض أن يكون أمر أحد فوق أمرك ، فلا ترض أن يكون أحد أولى بالشكر منك .

وان الله تعالى ألزم الورى طاعتك ، فلا يكونن أحد أطوع لله منك .

وان الله تعالى امر عباده بالشكر ، وليس الشكر باللسان ، ولكنه بالفعل والاحسان ، قال الله تعالى : « إعملوا ال داود شكرا » .

واعلم أن هذا الملك الذي أصبحت فيه أنما صار اليك بموت من كان أقبلك ، وهو خارج عن يدك مثل ما صار اليك .

فاتق الله فيما خولك من هذه الأمة ، فان الله سائلك عن النقير والقطمير والفتيل ، قال الله تعالى : « فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون » وقال تعالى : « وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين » .

واعلم أيها الملك أن الله تعالى قد أتى ملك الدنيا بحذافيرها سليمان بن داود _ عليهما السلام _ فسخر له الانس والجن والشياطين والوحوش والبهائم ، وسخر له الربح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ، ثم رفع عنه حساب ذلك أجمع ، فقال له : « هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب » .

فوالله ما عدها نعمــة كما عددتموها ، ولا حسبها كرامة كما حسبتموها ، بل خاف أن تكون استدراجا من الله تعالى ومكرا به ، فقال : « هذا من فضل ربى ليبلوني أأشكر أم أكفر » .

فافتح الباب ، وسهل الحجاب ، وانصر المظلوم ، أعانك الله على ما قلدك ، وجعلك كهفا للملهوف ، وأمانا للخائف » .

واستطرد الطرطوشي في حديثه فقال للأفضل:

« قد دوخت البلاد شرقا وغربا ، فما اخترت مملكة تزوجت فيها وولد لى فيها غير هذه المملكة » . مما يفهم منه أن زيارته هذه للأفضل كانت بعد اقامته في الاسكندرية بمدة طويلة ، وبعد أن تزوج بها وأنجب .

وختم حديثه أخيرا بهذا البيت من الشعر:

« والناس أكيس من أن يحمدوا رجلا

حتى يروا عنده آثار احسان »

هكذا خاطب الطرطوشي العالم الزاهد الملك الأفضل ذا الحول والطول ، وهو في أوج سلطانه وعظمته ، والكل يأتمرون بأمره حتى خليفته الآمر نفسه .

ولم يرو لنا الطرطوشى كيف تقبل الأفضل هذا الحديث ، وأغلب الظن أنه هز كيانه هزا ، وأنه استنكره فيما بينه وبين نفسه ، وأن كان قد تظاهر بقبوله قبولا حسنا ، فأن الرجل المستبد يأنف عادة من النقد ، وتستهويه آيات المديح .

ه ـ الطرطوشي وابن حديد _ قاضي الاسكندرية

وعاد الطرطوشى الى الاسكندرية ليستأنف سيرته الأولى ، وليفرغ للعلم والتعليم ، وتكاثر طلابه ، وأقبلوا على دروسك وأحبوه ، وأصطنع هو لهم طريقة جديدة هى أقرب شيء الى طرق التربية الحديثة ، فلم يقصر اجتماعاته بهم على حلقات الدرس

ثم ينفضون من حوله ، بل كان يصطحبهم ويخرج معهم فى معظم الأوقات فى رحلات خارج المدينة الى البساتين والأماكن الخلوية ، وهناك فى الهواء الطلق يلقى دروسه ، أو يذاكرهم فيما حفظوه ودرسوه ، وشاقت هذه الطريقة تلاميذه فأقبلوا عليه ، وكثر عددهم ، حتى كان اذا خرج فى رحلة من هذه الرحلات خرج فى كوكبة لا تقل عن أربعمائة طالب .

وصف لنا هذه الطريقة خادم الطرطوشى الخاص وأحسد تلاميذه _ أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن التجيبي الاسكندراني _ قال :

« كان _ أى شيخه الطرطوشى _ صاحب نزهة مع طلبته فى أكثر الأوقات ، يخرج معهم الى البستان فيقيمون الأيام المتوالية فى فرحة ومذاكرة ومداعبة مما لا يقدح فى حق الطلبة ، بل يدل على فضلهم وسلامة صدرهم ، وخرجنا معه فى بعض المنزهة فكنا ثلاثمائة وستين رجلا ، لكثرة الآخذين عنه المحبين فى صحبته وخدمته » .

ولكن هذا الاقبال جر على الطرطوشى الوبال ، فقد ضاق به قاضى الاسكندرية ابن حديد ضيقا شديدا ، ولابن حديد مع الطرطوشي قصة طويلة :

كانت اسرة بنى حديد كبرى الأسرات السكندرية فى ذلك الوقت مكانة وعلما وثروة وجاها وسلطانا ، وقد ولى منصب القضاء فى المدينة اكثر من واحد من افرادها ، وكان القاضى وقت وجسود الطرطوشى بالاسكندرية هو مكين الدولة أبو طالب احمسد بن عبد المجيد بن احمد بن الحسن بن حديد .

 اختصاصاته القضائية الدينية الواسعة _ اختصاصات مالية وادارية وضرائبية كثيرة ، فكان يشرف على الأحباس _ اى الأوقاف _ ، وعلى الجوالى _ أى ضريبة الجزية التى تجمع من اهل الذمة من يهود ونصارى _ ، وعلى دار الضرب ، وعلى المكوس _ أى الضرائب المدنية غير الشرعية .

وكان يعزز هذه المكانة أيضا أن ابن حديد نفسه كان ذا ثروة طائلة وأنه كان يحيا حياة العلية من القوم ، فيفتح قصره لكل قاصد ، ويكرم الناس ، ويغدق العطايا ، مما دفع الكثيرين من شعراء العصر الى مدحه والاشادة بذكره ، وقد صدق المقريزى في وصيفه حين قال :

« وله مروءة عظيمة ، ويحتذى أفعال البرامكة ، وللشعراء فيه مدائح كثيرة » .

وقد روى القريزى فى كتابه « الخطط » اكثر من قصة لبيان هذه المروءة والهمة العالية ، ولوصف حياة البلخ والترف التى كان يحياها القاضى ابن حديد ، أطرفها : أن قصر ابن حسديد فى الاسكندرية كان له بستان جميل ، وفى البستان نافورة كبيرة تتكون من قطعة واحدة من الرخام البديع ، ينحدر فيها الماء فتكون كالبركة فى اتساعها ، وكان صاحبها يباهى بها أهل العصر ، إلى أن علمت بها البدوية حبيبة الخليفة الآمر بأحكام الله الفاطمى ، فطلبتها منه ، وأجابها ابن حديد _ مضطرا _ إلى طلبها ، وحملت النافورة الى القاهرة ، وركبت فى بستان الهودج ، وهو القصر الجميل الذى بناه الخليفة الآمر لمحبوبته فى جزيرة الروضة ، وتألم أبن حديد لفقده هذه النافورة الما بالغا ، وما زال يتقرب للبدوية بالهدايا الى المقده هذه النافورة المه ،

ویروی القریزی خلال کلامه عن القاضی ابن حدید حادثة اخری یستردل بها علی مبلغ ما کان یتمتع به القاضی من حیاة کلها ترف وغنى ورفاهية ، وما كان يضمه قصره من تحف جميلة وطرف رائعة ، قال :

« وكان هذا الكين متولى قضاء الاسكندرية ونظرها في أيام الآمر ، وبلغ من علو همته وعظم مروءته أن سلطان الملوك حيدرة – اخا الوزير المأمون البطائحى لا قلده الآمر ولاية ثفر الاسكندرية في سنة سبع عشرة وخمسمائة ، وإضاف اليه الأعمال البحرية ، ووصل الى الثفر ، ووصف له الطبيب دهن شمع بحضور القاضى المذكور ، فأمر في الحال بعض غلمانه بالمضى الى داره لاحضار دهن شمع ، فما كان اكثر من مسافة الطريق الا أن أحضر حقا مختوما ، فك عنه فوجد فيه منديل لطيف مذهب على مداف بللور فيه ثلاث بيوت ، كل بيت عليه قبة ذهب مشبكة مرصاحة بياقوت وجوهر : بيت دهن بمسك ، وبيت دهن بكافور ، وبيت دهن بعنبر طيب ، ولم يكن فيه شيء مصنوع لوقته .

فعندما أحضره الرسول تعجب المؤتمن والحاضرون من علو همته ، فعندما شاهد القاضى ذلك بالغ فى شكر انعامه ، وحلف بالحرام ان عاد الى ملكه ، فكان جواب المؤتمن : « قد قبلته منك لا لحاجة اليه ، ولا لنظر فى قيمته ، بل لاظهار هذه الهمة واذاعتها ، وذكر أن قيمة هذا المداف وما عليه خمسمائة دينار » .

ويعلق المقريزي على هذا بقوله:

« فانظر _ رحمك الله _ الى من يكون دهن الشمع عنده في اناء قيمته خمسمائة دينار ، ودهن الشمع لا يكاد أكثر الناس يحتاج اليه البتة ، فماذا تكون ثيابه وحلى نسائه وفرش داره وغير ذلك من التجميلات » .

كان رجل كابن حديد ينتظر من الطرطوشى عند نزوله بالمدينة أن يسعى اليه وأن يمدحه وأن يكون من حاشيته ، ولو أنه فعل هذا لأغدق ابن حديد عليه العطايا ، وليسر عليه شؤون الحيساة جميعا ، ولكن الطرطوشى كان من صنف آخر من الرجال ، كان رجلا يعتد برجولته ، وكان عالما يعتز بعلمه ، وكان بعد هذا زاهدا لا يحبذ ذلك النوع من الحياة المترفة الباذخة التى كان يحياها ابن حديد ، ولعله أخذ على ابن حديد أيضا بعض تصرفاته المالية ، وبعدها عن قواعد الشرع والاسلام ، وأغلب الظن أنه أطلق لسانه يتحدث الى الناس بهذه المآخذ المالية ويعيد الحديث ويكرره في عنف وقسوة مما الم ابن حديد وآذاه .

وكانت للطرطوشى الى جانب هذا فتاوى كثيرة يعارض بها بعض النظم والقواعد القائمة التى تأخذ بها الدولة ، فهو مثلا قد أفتى وهو فى الاسكندرية ب بتجريح الجبن الذى يأتى به الروم الى المدينة ، وألف فى تحريمه رسالة صغيرة (١) ، وهو ينتقد كثيرا من العادات السائدة فى المجتمع والتى تنافى الدين الاسسلامى ، ويؤلف فى نقدها كتابا اسماه « بدع الأمور ومحدثاتها » (١) .

ثم هو بعد هذا قد جذب اليه عددا ضخما من تلاميذ المدينة وعلمائها ، فصار اذا انتقل من مكان الى مكان ، أو اذا خرج الى رحلاته خرج فى موكب حافل مهيب ، يثير الانتباه ويلفت الأنظار ، وفى هذا دون شك منافسة خطيرة لقاضى المدينة ورجلها ابن حديد ، وفيه خطورة محققة على مركزه ومكانته ، لقد انفض السامر من حوله ، وأصبح الحديث بين الناس فى الاسكندرية عن الطرطوشى ، وعسلم الطرطوشى ، ورحلات الطرطوشى ، وفتاوى الطرطوشى ، وبعد كقاض ، بل ولهج الناس بنقد الطرطوشى المصرفات ابن حديد كقاض ، وتناقلوا هذا النقد فيما بينهم مما أساء الى سمعة القاضى .

⁽١) أنظر الفصل الخاص بمؤلفات الطرطوشي فيما يلي .

لهذا جمع ابن حديد هذه المآخذ كلها ، ورفعها الى الوذير الأفضل شاهنشاه وبين له خطورة هذا الرجل على الاسكندرية وأهلها ، يؤكد هذه الحقيقة ابن فرحون فى ترجمته للطرطوشى ، فقد قال تعقيبا على حديثه عن رحلات الطرطوشى العلمية مع طلابه :

« وهذا من جملة ما رفعه عنه القاضى ابن حديد الى العبيدى _ يقصد الخليفة الفاطمى _ ووشى به اليه فى أمور غيرها ، وكان الطرطوشى يذكر بنى حديد ذكرا قبيحا ، لما كانوا عليه من اخذ المكوسات والمعونة على المظالم ، وكان يفتى بتحريم الجبن الذى يأتى به النصارى ، ويفتى بقطع محرمات كثيرة ، فخاطب بذلك بنو حديد ، وذكروه السلطان » .

٦ _ الأفضل يستدعى الطرطوشي ويجدد اقامته في جامع الرصد بالفسطاط

والسلطان المقصود هنا هو الوزير الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي ، والأفضل لم ينس بعد كيف ثارت الاسكندرية مع نزار ابن المستنصر منذ قليل ووقفت تقاومه مدة ، وهو لا يريد أن يثور شيء من الشغب في هذه المدينة ، ولو أن هذا العالم الزاهد الثائر ظل على سياسته هذه ينتقد المجتمع ، وينتقد الحاكم ، وينتقد القاضي وأحكامه ، وينتقد القواعد والنظم المالية المتبعة ، وينادى بتحريم الجبن الرومي وغيره من المأكولات التي تأتي من أوربا ، فانه سيسبب للدولة متاعب كثيرة ، وسينقص من مهابتها في أعين الشعب ، وسيحرض هذا الشعب على مقاطعة التجارة الأجنبية ، فتنقص أيرادات الدولة بنقصان الضرائب التي تؤخذ على هذه التحارة الواردة .

والأفضل يدرك خطورة هذا التقرير الذى رفعه القاضى ابن حديد اليه بشأن الطرطوشى ، فالطرطوشى ليس غريبا عليه ، فهو

يعرفه معرفة أكيدة منذ مقابلته الأولى له ، وهو يذكر جيدا موعظته الجريئة ، وما تضمنته من كلم قاس لاذع ، ومن حراة نادرة في قول الحق ، لهذا أراد أن يحسم الشر قبل وقوعه ، فأرسل الى والى الاسكندرية يأمره بارسال الطرطوشي اليه .

وجاء الرسول الى الطرطوشى ، وأراد أن يعطيه فرصة يستعد فيها للسفر ، فقال له :

- « يسر حوائجك ، فانك تمشى يوم كذا » .

فقال الطرطوشي:

« وأى حوائج معى ؟ ريشى رياشى ، وطعامى فى
 حوصلتى » .

وفى القاهرة قابل الأفضل الطرطوشي مقابلة طيبة ، ولكنه أمره بالبقاء في الفسطاط ، وحدد اقامته في مستجد الرصد جنوبي الفسطاط ، ومنع الناس من الاتصال به والآخذ عنه ، وعين له راتبا شهريا بضعة دنانير يأخذها من متحصل جزية اليهود ، وسمح لخادمة بالاقامة معه .

ويبدو أن الطرطوشى قضى فى اعتقاله مدة طويلة تبلغ شهورا ، فضجر من التضييق على حريته ، واشتد كرهه للأفضل ، تقول المراجع :

« وكان الشيخ يكره الأفضل ، فلما طال المقام به أى بالمعتقل ـ ضجر وقال اخادمه: الى متى نصبر ؟ أجمع لى المباح من الأرض ، فجمع له ، فأكله ثلاثة أيام ، فلما كان عند صلاة المغرب قال لخادمه: « رميته الساعة » ، فلما كان من الفد ركب الأفضل فقتل » .

ومعنى هذا أن الطرطوشى لما أشتد به الضيق أعلن امتناعه عن أكل شيء مما يأتيه به الأفضل ، وأمر خادمه أن يجمع له شيئا حلالا من المباح من نبات الأرض ، وأكل هذا المباح ثلاثة أيام ،

ثم اعتكف يصلى ويتعبد ويبتهل الى الله ، فلما كان اليوم الثالث قتل الأفضل ، ومن الثابت أن الأفضل قتل في اليوم السابق لعيد الفطر من سنة ١٥٥ ه.

وهذا بالتالى يحدد لنا المدة التي اعتقل فيها الطرطوشي ، فهو قد اعتقل في أواخر سنة ١٥٥ هـ ، وظل في الاعتقال الى شوال من نفس السنة .

وانكشفت الغمة عن الطرطوشى ، فقد ولى الوزارة بعد الأفضل المامون البطائحى ، وكان يعلم ما بين الرجلين ، فأفرج عن الشيخ وأكرمه اكراما زائدا وقربه اليه .

∨ ـ الطرطوشي والوزير المامون البطائحي

وعاد الطرطوشى الى الاسكندرية ، واستأنف بها حياته ونشاطه العلمى ، ولكن هذه المحنة لم تنل منه ولم تفل من حدته ، فقد كانت تشفله دائما الأمور التى كان يراها منافية للشرع والعدل ، والتى سبق أن تقدم للأفضل يطلب تغييرها فلم يستمع اليه ، بل أبعده عن داره ومدينته وحدد اقامته ، وقد خشى الطرطوشى ان تأخذ الوزير الجديد عزة الحكم وأبهة السلطان فيسير على نهج سلفه .

لهذا بدأ بعد عودته الى الاسكندرية مباشرة يؤلف كتابا فى السياسة وفن الحكم ، وما يجب أن يكون عليه الراعى والرعية ، وأتم هذا الكتاب فى سنة كاملة ، وسماه « سراج الملوك » ، وفى شوال سنة ١٦٥ حمل الكتاب وسافر الى القاهرة ليقدمه الى الوزير الجديد المأمون البطائحى ، وليعيد الحديث معه فى الأوضاع السقيمة القائمة فى الدولة ، والتى لايقرها الشرع .

ولم يكد المأمون يسمع بوصوله ـ وكان بين يديه الكتاب وكبار الموظفين يعرضون شؤون الحكم ـ حتى أمر فى الحال برفع الدفاتر ،

وفض المجلس ؛ وأمر بمد السماط ، واستدعى الفقيه لقابلته ، فلما دخل عليه ، وقف الوزير ، ونزل من مرتبته ، وجلس بين يدى الطرطوشى ، وفى هذا الدليل أكبر الدليل على عظم مكانة الطرطوشى ، وما كان يحسه الوزير نحوه من تبجيل واحترام ، فلم تكن من عادة الوزير فى العصر الفاطمى أن يقوم لتحية القادم عليه مهما كانت مكانته ، ولكن المأمون لم يقنع بالوقوف لتحية الطرطوشى فقط ، بل ترك مرتبته ونزل فجلس بين يديه كما يجلس التلميذ بين يدى الأستاذ .

وبعد المقابلة أمر بانزاله في مكان خاص أعد له ، وأمر أن يرتب له خمسة دنانير في اليوم ، ولكن الطرطوشي رفضها ، وطلب أن يصرف له دنياران فقط ، وهو المبلغ الذي كان يصرف له أيام الأفضل .

ثم كان المأمون يستدعيه لمجلسه الخاص الذي يعقده يومى راحته من كل اسبوع ، فيستمع الى شكاواه ويجيب شفاعاته ، وصف هذه القابلة وهذا الاكرام المقريزي فأحسن الوصف ، قال :

« وفي شوال سنة ١٦٥ وصل الفقيه أبو بكر محمد ابن محمد الفهرى الطرطوشي من الاسكندرية بالكتاب الذي سماه (« سراج الملوك » ، فأكرمه (أي المأمون) وأمر بانزاله في المجلس المهيأ للأخوة ، وتقدم برفع ادوية الكتاب وأوطية الحساب وسلام الأمراء ، وعمل السماط ، وسارع الى البادهنج ، واستدعى بالفقيه ، فلما شاهده وقف ونزل عن المرتبة ، وجلس بين يديه ، ثم انصرف ومعه أخو المأمون الى مكان أعد له ، وحمل اليه ما يحتاج اليه ، وأمر مشارف الجوالى أن يحمل اليه في كل يوم خمسة دنائير بمقتضى توقيع مقتضب ، فامتنع الفقيه ، وأبى أن يقبل غير الدينادين اللذين اللذين

كانا له فى الأيام الأفضلية ، وصار المأمون يستدعيه فى يومى راحته ، ويبالغ فى كرامته ، ويقضى شفاعاته » .

وحضر الطرطوشى لمقابلة المأمون ليقدم له كتابه « سراج الملوك » الذى ألفه باسمه وأهداه اليه ، وليعرض عليه تلك الأمور الظالمة المنافية للشرع التى سبق أن تحدث بشـــانها فى ايام الأفضل فلم يستمع اليه .

أما الكتاب فله حديث خاص مفصل سنعود اليه بعد قليل في فصل المؤلفات .

وأما تلك الأمور فكانت تتلخص في ألنظم المتبعة في الميراث :

فقد كان القضاة في مصر على العصر الفاطمى يتبعون المذهب الشيعى الاسماعيلى ، وهذا المذهب يقضى بأن ترث البنت كل ما يترك أبوها أذا كانت وحيدة لا أخ لها أو أخت ، ويحرم العصبة من المشاركة في الميراث .

وكانت النظم الوضعية المتبعة تقضى أيضا بأن يأخد أمناء الحكم الى الموظفون القضائيون المشرفون على شؤون الميراث ربع العشر من أموال الأيتام عند توزيع التركة بمثابة أجر لهم .

وكان الطرطوشي يرى في الأمر الأول مخالفة للشرع في نظره ، أي للمذاهب السنية ، فالمذاهب السنية ترى ألا ترث البنت الوحيدة أكثر من نصف التركة ، وكان يرى في الأمر الثاني ظلما فاحشا واغتصابا لحق الأيتام ، ومن واجب الحكومة أن تحافظ على الموالهم وتصونها ، لا أن تقتطع جزءا منها لموظفيها .

وتناقش الطرطوشى طويلاً مع المأمون فى هذه الموضوعات ، واعتذر المأمون عن الأمر الأول بأنه مما جرت العادة السابقة به ، وانه لم يحدث فى أيامه ، وأنه يتفق ومذهب الخليفة الفاطمى ، فليس من اليسسير أن يوافق على تغييره ، لأنه يتصل بصميم المذهب الشيعى الاسماعيلى ، مذهب الدولة الرسمى .

وبعد نقاش طويل وافق المأمون على حل وسط يرضى المذهب

الرسمى للدولة ويرضى الطرطوشى ، فقد وافق على اصدار أمر للقضاة بأن يتبع في الميراث مذهب الميت ، فان كان سنيا اتبع المذهب السنى ، وان كان شيعيا اتبع المذهب الشيعى .

أما الأمر الثانى ، فقد وافق عليه الوزير منذ اللحظة الأولى ، لأنه رأى فيه اجحافا حقيقيا بأموال اليتامى وحقوقهم ، وأمر بأن يصرف للموظفين _ أمناء الحكم _ راتب من خزانة الدولة بدلا من المبالغ التى كانوا يقتطعونها من أموال اليتامى .

وصدر سجل رسمى موقع عليه من الخليفة الآمر بأحكام الله والوزير المأمون البطائحي بهذه الأوضاع الجديدة ، وأرسل الى القضاة في كل انحاء الدولة للعمل به .

ولما اطمأنت نفس الطرطوشي بهذا الاتفاق-أخذ _ كما يقول المقريري _ في ذكر بقية حوائج أصحابه ، فحقق له الوزير ما أراد ، وأجاب شفاعاته فيهم .

وبعد نحو شهرين من اقامته في القاهرة ازمع العسودة الى الاسكندرية ، فذهب الى الوزير يشكره ويودعه ، وتقدم اليه في هذه القابلة بمطلب آخر ، طلب الموافقة على انشاء مسجد جسديد بالاسكندرية بظاهر الثفر على البحر ، فرحب الوزير بطلبه ، وكتب في الحال الى ابن حديد قاضى الاسكندرية يأمره بالاشراف على بناء المسجد في المكان الذي يتخيره الطرطوشي ، وأن « يبالغ في اتقانه وسرعة انجازه ، وتكون النفقة عليه من مال ديوانه دون مال الدولة » .

ويقول المقريزى:

« وتوجه _ أى الطرطوشي _ فبنى المسجد المذكور على باب البحر » .

وباب البحر كان قريبا من ميدان المنشية الحالى ، وهسذا المسجد للأسف من المساجد التي هدمت وتلاشت معالمها ، فلا وجود له الآن في مدينة الاسكندرية .

الباب الرابع.

تلاميذ الطرطوشي

- ا ہے سند بن عنان .
- ٢ ـ أبو الطاهر بن عوف .
 - ٣ ـ أبو بكر بن العربي ،
 - ٤ ــ المهدئ بن تومرت .

تلاميذ الطرطوشي

تقسدمة: __

عالمان كبيران اقتسما الزعامة الفكرية في العالم الاسلامي في أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس الهجريين: الفزالي في المشرق، والطرطوشي في الاسكندرية والمفرب، وقد تتلمذ على الطرطوشي - كما أسلفنا عدد كبير من طلبة العلم من ابناالاسكندرية ومن الوافدين عليها وبخاصة الاندلسيين والمفاربة، فقد كان هؤلاء يقفون بالاسكندرية - وهم في طريقهم الى الحج - وقفة طويلة ويترددون على مدرسة الطرطوشي وحلقات العلم التي يعقدها معتزين بمواطنهم فخورين به يرتشفون من مناهل علمه ويسألونه الأجازة لهم ولمواطنين آخرين لم تتح لهم فرصة التلمذة المباشرة عليه.

وكان منهاج الطرطوشى الأول فى الحياة الورع والتقسوى والتمسك الشديد بأهداب الدين ، وكانت وسيلته الكبرى التى التزم بها هى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى عنف وصرامة ، وقد أخذ تلاميذه بهذا المنهج وبهذه الوسيلة ، وكان أثره فيهم قويا واضحا ، ولهذا تخرج عليه الكثيرون ، ونبغ من بينهم رجسال بارزون من العلماء والمصلحين ، وقد اخترنا من بين الكثرة الكثيرة من هؤلاء التلاميذ أربعة من نوابغهم ، اثنين من أبناء الاسكندرية واثنين من أبناء المغرب والأندلس ، ورأينا أن نقدم لكل منهم هنا ترجمة مختصرة لنيين الى أى حد كان أثر هذا الأستاذ الكبير فى تلاميذه وفى المجتمع الاسلامى بوجه عام .

أما التلميذان السكندريان فهما : العالم والفقيه الكبير القاضى سند بن عنان الذي خلفه في مدرسته وحلقته وجلس على كرسي

الاستاذية من بعده ، والفقيه المالكي كبير علماء الاسكندرية طوال القرن السادس الهجرى أبو الطاهر بن عوف .

وأما التلميذان المغربيان فهما العـــالم الكبير قاضى اشبيلية أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربى ، والداعية الأكبر المهــدى ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين .

١ ـ سند بن عنان

هو أبو على سند بن عنان بن ابراهيم بن حرير بن الحسين ابن خلف الأزدى .

كان أنبغ تلاميذ الطرطوشى وأقربهم اليه ، وكان كأستاذه مالكى المذهب ، وقد سمع منه ، ولازم حلقته سنين طويلة ، ولم يأخذ عن أستاذه العلم وحده بل قبس من أخلاقه وفضله ، ومن فلسفة الزهد التى أخذ الطرطوشى بها نفسه ، ولهذا وصفه ابن فرحون فى كتابه « الديباج المذهب » بقوله:

« كان من زهاد العلماء وكبار الصالحين ، فقيها فاضلا ، تفقه بالشيخ أبى بكر الطرطوشي » .

وروى فقيه آخر هو أبو القاسم بن مخلوف بن عبـــد الله ابن عبد الحق بن جاره قال:

« أخبرنى من أثق به أنه رأى الفقيه أبا عسلى سند بن عنان ، قال فقلت له : ما فعل الله بك ؟ فقال : عرضت على ربى فقال لى أهلا بالنفس الطاهرة الركية العالمة » .

ووصفه عالم مصرى في القرن السابع الهجرى هو تقى الدين ابن دقيق العيد بقوله:

« كان _ أى سند بن عنان _ فاضلا من أهل النظر » . وكان سند بن عنان كأستاذه الطرطوشي يقول الشعر أحيانا ، وقد روى أبن فرحون بيتين من شعره ، قال : ومن نظم سلسند رحمه الله :

فبادرتها بالنتف خيوفا من الحتف

فقالت:

على ضعفى استطلت ووحـــدتى ؟

رويدك للجيش الذي جاء من خلفي

واشتفل سند بن عنان بالتأليف ، ذكرت المراجع انه ألف كتابا ضخما في شرح « المدونة » _ وهي من أمهات الكتب في فقه مالك _ وسمى سند شرحه هذا « الطراز » وكان في ثلاثين مجلدا ، غير أنه توفى قبل أتمامه .

وقد رشحت هذه الوهلات جميعا سند بن عنان لأن يخلف أستاذه الطرطوشي ، فجلس في حلقته ومدرسته بعده يلقى الدروس في العلوم المختلفة ، وخاصة في فقه مالك ، قال أبن فرحون :

« وجلس ـ سند بن عنان ـ لالقاء الدرس بعد الشيخ أبى بكر الطرطوشي ، وانتفع الناس به » .

وظل سند بن عنان (۱) يدرس احدى وعشرين سنة بعد وفاة أستاذه الطرطوشى الى أن توفى سنة ٤١٥ هـ ، ودفن بالقرب من قبر الطرطوشى ، ولا زال مسجد القاضى سند بن عنان موجودا حتى اليوم داخل المسجد المسمى باسمه فى شارع الباب الأخضر (أو شارع السكة الجديدة) بالاسكندرية .

⁽۱) انظر ترجمته في : (ابن فرحون : الديباج اللههب) و (جمال الدين الشيال : أعلام الاسكندرية في العصر الاسلامي) .

۲ ــ أبو الطاهر بن عوف اسماعيل بن مكي

ابو الطاهر بن عوف هو اسماعيل بن مكى بن اسماعيل ابن عيسى بن عوف الزهرى ، وينتهى نسسبه الى عبد الرحمن ابن عوف الصحابى الجليل ، وقد كان شيخ المالكية في مدينسة الاسكندرية طوال القرن السادس الهجرى (١٢ م) دون منازع ، فقد ولد سنة ٥٨١ هـ (١٠٩٢) وتوفى سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥) عن ست وتسعين سنة .

وصفه السيوطى بأنه « صدر الاسلام » ، وقال انه تفقه على أبى بكر الطرطوشي وسمع منه ، وتخرج به الأصحاب .

وقال أبو الحسن على بن الحميرى :

« كان ابن عوف _ رحمه الله تعالى _ امام عصره وفريد دهره فى الفقه على مذهب مالك رحمه الله ، وعليه مدار الفتوى ، وجمع الى ذلك الورع والزهد وكثرة العبادة ، والتواضع التام ، ونزاهة النفس » .

وقال عالم الاسكندرية ومؤرخها منصور بن سليم :

« كان _ ابن عوف _ من العلماء الأعلام ، ومشايخ الاسلام ، ظاهر الورع والتقوى ، كتب عنه الحافظ السلفى ، وروى عنه شرف الدين ابن القدسى » .

وبیت ابن عوف بیت مصری سکندری أصیل ، نبغ فیه أكثر من عالم ملأوا الدینة علما ، قال منصور بن سلیم :

« وبيت أبن عوف بثغر الاسكندرية بيت كبير شهير بالعلم ، كان فيه جماعة من الفقهاء ، قال السيخ شهاب الدين بن هلال : سمعت أنهم اجتمع منهم سبعة في وقت واحد ، وكانوا اذا دخلوا على الامام أبي على

سند بن عنان ـ مؤلف كتاب الطراز ـ يقول : اهلا بالفقهاء السبعة ، تشبيها لهم بالفقهاء السبعة أئمة الدنة النبوية » .

وقد اخذ ابن عوف عن الكثيرين من الفقهاء المالكية بالاسكندرية ، وخاصة عن أبى بكر الطرطوشى ، ولا عجب فى هــــذا ، فقد كان ابن عوف ربيب الطرطوشى ، وكان الطرطوشى تزوج خالة ابن عوف .

وشهد أبو الطاهر بن عوف نهاية الدولة الفاطمية الشيعية وقيام دولة صلاح الدين في مصر في سنة ٥٦٧ هـ ، وقد زار صلاح الدين الاسكندرية في سنة ٥٧٧ هـ ، وحرص في هذه الزيارة أن يحضر هو وأولاده وكبار رجال دولته دروس أبى الطاهر بن عوف ، وسمعوا عليه جميعا « موطأ مالك » بروايته عن أستاذه الطرطوشي .

وأصبحت لابن عوف عند صلاح الدين منذ ذلك الحين مكانة كبيرة ، يجله ويحترمه ، ويقدره ويوقره ، واذا اعترضته مشكلة من مشاكل الدين أو الدولة أرسل اليه يسأله الرأى والفتوى ، يؤكد هذا قول ابن فرحون :

« وكان السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب يعظم أبن عوف ويراسله ويستفتيه » .

وكان صلاح الدين يستجيب لرأى ابن عوف ومشورته ، فقد أسرع بتلبية رغبته عندما أشار عليه باعادة ضريبة الصادر ، وهي ضريبة كانت تفرض على تجارة الفرنج الصادرة عن الاسكندرية ، وتوزع حصيلتها على فقهاء الثغر .

وقد أشارت المراجع الى أن نشاط ابن عوف لم يكن مفضورا على التدريس وحسب ، بل كان له نشاط مماثل في ميدان التأليف ، فقد قال السيوطى : « وله مؤلفات » ، وقال ابن فرحون : « وله مصنفات » ، ثم أشار الى اثنين من هذه المصنفات ، اقال :

« قال ابن هلال: رأيت له مجلدا في الرد على المتنصر ، وهو رجل يدعى العلم وليس من أهله ، صنف كتابا اسماه « الفاضح » واعتقد انه نقض به الشريعة المحمدية ، وادعى فيه تناقضا في الأحكام ، وكان جاهلا مصحفا ، فمما صحف قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « ثمرة طيبة وماء طهور » بقوله « خمرة طيبة » ، وهو يحرم وقال : انظر كيف يقول : « خمرة طيبة » وهو يحرم شرب الخمر .

وللشيخ أبى الطاهر تذكرة التذكرة في أصــول الدين ، وغير ذلك من التآليف » .

هذا هو ابن عوف ، أما مدرسته فقد أشار اليها القريزى في كتابه « اتعاظ الحنفا » ، فقال في حوادث سنة ٣٣٥ هـ :

« وفيها بنى الوزير رضوان المدرسة المعروفة فى ثغر الاسكندرية ، وجعل فى تدريسها الفقيه أبا طاهر ابن عوف » .

فتكون بذلك أول مدرسة (١) أنشئت في مدينة الاسكندرية ، بل في مصر كلها في العصر الاسلامي ، فقد سبقت المدرسة السلفية باثنتي عشرة سنة .

وقد عثرت لحسن الحظ في « صبح الأعشى » على السجل الصادر عن الخليفة الفاطمى الحافظ لدين الله بتعيين ابن عوف مدرسا لهذه المدرسة ، وهو سجل ذو أهمية كبرى ، لأنه السجل الوحيد الذى وصلنا من العصر الفاطمى كله بتعيين مدرس ، وهو الى هذا يتضمن معلومات جديدة عن هذه المدرسة التى لا نكاد نعرف عنها شيئا .

⁽۱) انظر : جمال الدين الشيال : اعلام الاسكندرية في العصر الاسلامي ، ص ١٠٦ وما بعدها .

وفى سنة ٨١ه هـ توفى ابن عوف (١) ، ودفن فى الاسكندرية ، ولكنا نبحث اليوم عن مدرسته أو عن قبره فلا نجد لهما أثرا ، وهكذا فعل النسيان والاهمال بعالم ملأ المدينة علما ، وقضى حياته الطويلة كلها يعلم ويدرس ويؤلف وينفع الناس .

٣ ـ أبو بكر بن العربي

هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن العربى المعافرى الاشبيلى
ولد فى السبيلية سنة ٦٨ هـ (١٠٧١) ، وصحب أباه فى
رحلته الى المشرق سنة ٥٨ (١٠٩٢) وكان حينذاك فى السابعة
عشرة من عمره ، وتتلمذ ابان هذه الرحلة على كبار علماء مصر
والحجاز والشام والعراق : ففى بغداد حضر دروس أبى حامد
الفزالى ، وفى بيت المقدس لازم أبا بكر الطرطوشى (قبل انتقاله الى
الاسكندرية واستقراره بها) وتتلمذ عليه .

واستغرقت رحلته هذه ثمانى سنوات توفر فيها على دراسة علوم الدين المختلفة ، وبخاصة الفقه والحديث والتفسير ، وفى سنة ٩٣٤ ترك بغداد الى الاسكندرية ، فأقام بها وقتا لازم خلاله أستاذه القديم أبا بكر الطرطوشى فاستزاد من علمه ووثق علاقته به .

ولما اعتزم ابن العربي العودة الى وطنه حمله استاذه الطرطوشي

⁽۱) راجع ترجمته في :

⁽ ابن قرحون : الدیباج المذهب ، ص 00 - 10) و (ابو شامة : کتاب الروضتین ، + 1 ، + 1 ، + 1 ، + 1 ، + 1) و + 1 . + 1 الروضتین ، + 1) و + 1 المسلوك ، + 1) و + 1 المشروى : مخطوطة اتعاظ الحنفا ، + 1 ، + 1 المسلوك ، + 1 ، + 1) و + 1 (+ 1) و (+ 1) المدین الشیال : + 1 المدین المسلول : + 1 المدین المسلول : + 1

رسالة الى سلطان المغرب المرابطى أبى يعقوب يوسف بن تاشفين قدم اليه فيها النصائح بأن يلتزم حدود الدين فى أوامره ونواهيه ، وأن يرعى الله فى رعيته ، وأن يفتصح بابه لكل صاحب مظلمة ، ثم أوصى السلطان خيرا بتلميذه ابن العربى فقال مزكيا له ومقرظا لعلمه ومواهبه:

« والفقيه أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربى ممن صحبنا ، وهو ممن جمع العلم ووعاه ، ثم تحقق به ورعاه ، وناظر فيه وجد حتى فاق اقرائه ونظراه ، ثم رحل الى العراق فناظر العلماء ، وصحب الفقهاء ، وجمع من مذاهب العلم عيونها ، وكتب من حديث رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ وروى صحيحه وثابته ، والله تعالى يؤتى الحكمة من يشاء ، وهو وارد عليك بما يسرك ، فاشدد عليه يديك ، واحفظ فيه وفي امثاله وصية الله سبحانه لنبيه عليه السلام ، قال الله سبحانه _ « واذا جاءك قال الله سبحانه _ « واذا جاءك الله ين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة » (۱) .

وعاد أبو بكر بن العربى الى وطنه محملا بهذه الوصية والتزكية من استاذه فأكرمه السلطان وعينه قاضيا لمدينته اشبيلية ، يقول ابن بشكوال في كتابه « الصلة » :

« فنقع الله به أهله لصرامته وشدته ونفوذ أحكامه ، وكان له فى الظالمين سورة مرهوبة ، ثم صرف عن القضاء ، وأقبل على نشر العلم وبثه » (. .

⁽١) نشرنا هذه الرسالة كاملة لأول مرة ملحقة بهذا الكتاب ،

وكان ابن بشكوال نفسه من تلاميذه ، وقرأ عليه الكثير من كتبه ومؤلفاته .

وكثر حامدو ابن العربى (۱) وشائئوه ، ووشى به الواشون فقبض عليه وسجن فى مدينة مراكش نحو عام ، ولما أطلق سراحه خرج قاصدا مدينة فاس ، فمات فى طريقه اليها فى سنة ٣٤٥ ، فحمل اليها ودفن بها ، قال عنه ابن بشبكوال انه :

« ختام علماء الأندلس ، وآخر ائمتها وحفاظها » .

وترجم له النباهى فى « تاريخ قضاة الأندلس » ؛ وله مؤلفات كثيرة فى الحديث والفقه والأصول والتفسير والأدب والتاريخ ، وقد طبع بعض هذه المؤلفات مثل « العواصم من القواصم » و « أحكام القرآن » ؛ ولا زال البعض الآخر مخطوطا ، مثل : « عارضية الأحسودى فى شرح الترمذى » و « القبس فى شرح الموطأ » و « الانصاف فى مسائل الخلاف » و « اعيان الأعيان » و « قانون التأويل » . . الخ .

الهدى بن تومرت (۱۸۵ – ۲۲ه = ۱۰۹۲ – ۱۱۳۰)

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن تومرت المصمودى البربرى الجنس ، الملقب بالمهدى ، مؤسس دولة الموحدين ، ينتمى الى قبيلة هرغة احدى قبائل جبل السوس بالمغرب الأقصى ، ولد ونشأ في

⁽١) راجع ترجمته بالتفضيل في :

⁽السيوطى: طبقات الحفياظ) و إ ابن خلكان: وفيات الأعبيسان) و (القريزى: نفح الطيب) و (النباهى: تاريخ قضياة الأندلس) و (ابن فرحون: الديباج المذهب) و (ابن بشكوال: الصلة) و (ابن العبربى: العواصم والقواصم ، مقدمة محب الدين الخطيب) و (الزركلى ، الاعلام) .

قبيلته ، ثم رحل الى الشرق طلبا للعلم ، فانتهى إلى العراق ودرس بالمدرسة النظامية بعد افتتاحها وحضر دروس أبي حامد الفزالي ، وأدى ابان رحلته هذه فريضة الحج وجاور بمكة زمنا ، وكان ورعا تقيا منصر فا الى العبادة شديدا على من يخالف أوامر الدين ، فاذا رأى منكرا حاول أن يمنعه بلسانه وبيده فثار به جماعة من أهل مكة ، ففادرها الى مصر ، وقصد مدينة الاسكندرية واتصل فيها بأبى بكر الطرطوشي وتتلمذ عليه ، وهناك حاول أن يفعل ما فعله في مكة وأن يقيم نفسه آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر فأخرج من المدينة وأبحر الى المغرب ، ونزل في طريقه بالمهدية وهناك أعاد الكرة فكسر ما رآه فيها من آلات اللهو وأواني الخمر ، وانتقل منها الى بجاية ، فأخرج منها الى قرية « ملالة » ، فلقى بها عبد المؤمن ابن على القيسى الكومى ، وهو شاب نابه ذكى ، فاتخذه مريدا ، واتفقا معا على الدعوة له باعتباره المهدى المنتظر ، وانتقلا الى مدينة مراکش ، وحضر ابن تومرت مجلس على بن يوسف بن تاشفين ، وأنكر عليه بدعا ومنكرات ، وغادر ابن تومرت مراكش الى موضع حصين من جبال « تينملل » ، وبدأ يعظ الناس هناك ، فأقبلوا عليه وأيدوه ، فأخذ يحرضهم على عصيان ابن تاشفين ، ونشب القتال بينهم وبين جند الدولة ، فقتاوا نفرا منهم ، وقوى أمر ابن تومرت منذ ذلك الوقت ، فجاهر بالدعوة ولقب نفسه بالمهدى القائم بأمر الله .

ولم يعمر ابن تومرت طويلا ، وتوفى سنة ٢٥٥ هـ قبل أن يتم له فتح مدينة مراكش ، ولكنه كان قد مهد الأمور ووضع القواعد الدولة الجديدة ، فأتم الفتوح بعده صاحبه عبد المؤمن بن على المؤسس الحقيقى للدولة الموحدية .

وكان ابن تومرت أسمر ربعة عظيم الهامة حديد النظر داهية شديد الذكاء فصيحا أديبا 6 وله مؤلفات منها: « كنز العلوم »

وأهمها « كتاب أعز ما يطلب » وقد أودعه أصول دعوته ، وترحمه الى اللغة البربرية .

وقد كان ابن تومرت (١) ينسب نفسه الى الرسول عليه السلام ولكن هذا النسب مشكوك فيه ولا تأخذ به معظم المراجع .

⁽۱) راجع ترجمته بالتفصيل في ::

⁽ابن خلكان: وفيات الأعيان) و (السلاوى: الاستقصا) و (اخبسار المهدى بن تومرت ، طبع باريس ١٩٢٨) و (ابن خسلدون: كتاب العبر) و (ابن الخطيب: رقم الحلل) و (ابن الأثير: الكامل) و (الودكلى: الواقى بالوقيات) و (محمد عبد الله عنان: تراجم اسلامية) و (الزركلى: الأعلام).

البائيلي

مؤلفات أبي بكر الطرطوشي

مؤلفات أبي بكر الطرطوشي

أشرنا من قبل الى أن الطرطوشى قدم الى الاسكندرية حوالى سنة ٩٠ أو ٩١ هـ وقد بلغ الأربعين من عمره ، وأنه قضى هذه السنوات الأربعين متنقلا مرتحللا في بلدان المفسرب والمشرق الاسلاميين يطلب العلم أولا ، وينشر العلم ويشتغل بالتدريس ثانيا (وخاصة في المرحلة التي قضاها في الشام) .

فلما وصل الى الاسكندرية استقر بها ، ولم يكن يفادرها الا لزيارة القاهرة ، ثم يعود ثانية الى مدرسته وتلاميذه وحياته العلمية الغنية في الاسكندرية .

وهذه الحياة القلقة الثائرة غير المستقرة لم تمنع الطرطوشي من التأليف ، فقد ذكرت المراجع المختلفة التي ترجمت له أن له تآليف كثيرة : وأغلب الظن أنه كتب بعضا من هذه الولفات أثناء مقامه في الشام ، وأنه ألف الغالبية العظمي منها أثناء مقامه في الاسكندرية ، فان حياة الارتحال والطلب الأولى في الأندلس والحجاز والعراق والشام لم تتح له الفرصة للتفرغ للتأليف ، كما أن سن الأربعين التي بلغها عند نزوله بالاسكندرية هي سن النضيوج الفكري ، يضاف الى ذلك أيضا هذه الحياة المستقرة التي حياها في الاسكندرية ، وخاصة بعد أن تزوج بها وأنجب ، واطمأن الى معيشة هادئة في كنف هذه الزوجة السكندرية الصالحة .

هذه الأسباب تؤيد ترجيحنا أن الطرطوشى وضع معظم مؤلفاته أبان الحقبة التى عاشها فى الاسكندرية ، ومداها نحو الثلاثين عاما ، فهو قد نزل بها وسئنه نحو الاربعين ، وتوفى بها فى سنة ٥٢٠ هـ وهو فى سن السبعين ، ويؤكد ترجيحنا السابق الملابسات والظروف

التى ألفت فيها وبسببها معظم كتب الطرطوشى ، فسنرى عنب استعراضنا لها أن الأسباب التى دفعته الى تأليفها كانت ظروفا وأحداثا تتصيل بالدة التى قضياها فى مصر بوجه عام ، وفى الاسكندرية بوجه خاص .

ويبدو واضحا من قائمة المؤلفات التي ذكرتها المراجع ، ونسبتها الى الطرطوشي أن الرجل كان نشيطا منتجا خصب الانتاج ، وقد احصيت له اثنين وعشرين مؤلفا ، الموجود منها تسعة ، والباقي مفقود .

ومن هذه المؤلفات التسعة طبع اثنان فقط ، والسبعة الأخرى ما زالت مخطوطة .

وبعض هذه المؤلفات يتصل بعلوم التفسير ومسائل الخلاف والفقه ـ وفقه مالك بوجه خاص ـ ، والبعض الآخر يتناول بالبحث علم السياسة وفن الحكم ، والمجتمع وأدواءه وأحواله .

وفيما يلي عرض تحليلي تفصيلي لهذه الكتب:

۱ _ اولها: ((مختصر تفسير الثمالبي)) (۱):

والثمالبي _ /أو الثملبي _ هو أبو اسحاق أحمد بن محمد ابن أبراهيم النيســـابوري المتوفى سنة ٢٧١ هـ ، قال عنه ابن خلكان :

« كان أوحد زمانه في علم التفسير ، وصنف التفسير الكبير الذى فاق غيره من التفاسير ، وله كتاب العرائس في قصص الأنبياء » .

وهذا التفسير الكبير الذي فاق غيره من التفاسير هو الذي اسماه صاحبه « الكشف والبيان في تفسير القرآن » 6 وهو الذي

⁽۱) ذكره (ابن خير في الفهرست) و (ابن فرحون في الديباج الملهب) و (المقرى في نُفح الطيب) و (بروكلمان) ه

اختصره الطرطوشى فى كتاب خاص ، وقد قام بتأليف هذا المختصر أثناء مقامه فى الشاما ، وكان يدرسه فى المسجد الأقصى ببيت المقدس ، ذكر ذلك العالم الأندلسى أبو بكر محمد بن خير فى « فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدواوين » ، قال :

« كتاب الكشيف والبيان في تفسير القرآن ، تصنيف الأستاذ أبي اسحاق أحمد بن محمد الثعلبي _ رحمه الله .

کتاب اختصاره الشیخ الامام أبی بکر محمد بن الولید الفهری الطرطوشی _ رحمه الله _ ، خدثنی بمختصره الشیخ القاضی أبو بکر محمد بن عبد الله ابن العربی _ رحمه الله _ اجازة ، قال : حدثنی به مختصره شیخنا الزاهد الامام أبو بکر الفهری الطرطوشی فی مهد عیسی بالفسیفساء من المسجد الأقصی فی رمضان سنة ۱۸۷ بحضرتی و قراءتی له علیه » (۱) .

وتوجد في دار الكتب الصرية بالقاهرة نسخة خطية من الجزء الثاني من هذا المختصر (٢) .

⁽۱) فهرست ابن خير ، ص ٥٩ .

⁽٢) وهذا نص ما ورد على صفحة العنوان من هذه المخطوطة :

[«] الجزء الثانى من مختصر كتاب الكشف والبيان فى تفسير القرآن اللى هو تصنيف الشيخ الامام أبى اسحق أحمسد بن محمسد بن ابراهيم الثعلبى سرحمه الله س ، مما عنا (كذا) باختصاره وحدف أسانيده وتكراره الشيخ الفقيه الامام أبو بكر محمد بن الوليد بن خلف بن سليمان بن . . . الفهرى الطرطوشي رضى الله عنه » .

وكتب تحت العنوان بخط مخالف : « وقف هذا الجزء وما بعده وتصدق به ابتفاء لوجه الله تعالى وطلبا لمرضاته الأمير احمد أغا باش جاويش تفكجيان ، وجعل مقره في خزانة جامع شيخون وتحت يد امامه ، تقبيل الله منه ذلك بتاريخ ١١٩٣ .

٢ ـ والكتاب الثانى تسميه المراجع: ((الكتاب الكبير في مسائل الخلاف)) (۱) أو ((التعليقة الكبيرة في الخلافيات)):

وذكر أحد المراجع أن هذا الكتاب كان كبيرا يقع في خمسة أجزاء . والخسلاف _ كما نعلم _ احد العلوم الأولى التي بدأ الطرطوشي يتلقى أصولها منذ صباه المبكر في وطنه الأول الأندلس على استاذه أبى الوليد الباجي ، والتي استزاد منها حتى اتقنها أثناء تحصيله في بغداد والبصرة وغيرهما من مدن العراق ، وبعد أن تم نضجه الفكرى في الاسكندرية وأصبح أستاذا ومرجعا في هذا العلم وضع هذا المؤلف الكبير في مسائل الخلاف في خمسة أجزاء .

۳ _ أما الكتاب الثالث فهو ((شرح لرسالة الشبيخ أبى زيد القيرواني)) :

وأبو محمد عبد الله بن أبى زيد عالم من أكبر علماء الفقسه المالكى الأوائل الذين وضعوا اسسه وقواعده ، وقد عاش فى القرن الرابع الهجرى ، وسكن القيروان مدة ، وكان اماما للمالكية في وقته ، وهو جامع مذهب مالك وشارح اقواله ، حتى لقد عرف باسم « مالك الصغير » ، وقد توفى سنة ٣٨٩ هـ ، وله تآليف كثيرة أهمها : « الرسالة فى الفقه المالكى » .

وقد شرح الرسالة كثيرون من علماء المالكية ، والطرطوشى ـ كما نعلم ـ نشأ مالكى المذهب ، وظل طول حياته مالكى المذهب ، وعاش الفترة الأخيرة من حياته في مدينة الاسكندرية حيث كان يسود المذهب المالكى ، ومن المرجع اذن أن يكون هذا الشرح بعض دروسه في المذهب المالكى التى كان يلقيها في مدينة الاسكندرية .

⁽۱) ذكره : (الحميى في صفة جزيرة الأندلس) و (ابن فرحون في الديباج المدهب) و (المقرى في نفح الطيب) و (الزركلي في الأعلام) و (حاجي خليفة في كشف الظنون) .

إلى الرابع لم تذكره الراجع التى ارخت للطرطوشى وأحصت مؤلفاته ، ولكن الطرطوشى نفسه اشار اليه فى اكثر من موضع من كتابه « سراج الملوك » ، وسسماه هناك : « كتاب الأسرار »:

قال مرة أثناء حديثه عن العقل:

« قد ذكرت فى ((كتاب الأسرار)) حقيقة العقل وأقسامه ، ومحله وأحكامه ، بما لا مزيد عليه ، ونذكر ها هنا منافعه ومداركه ولباب ما تحرر من القول فيه . . الخ » (١) .

وقال مرة أخرى عند كلامه عن القضاء والقدر:

« وقد كنت جمعت فيه كتابا من جملة كتابى في الأسرار ، هل التوفيق مكتسب أو موهبة بلا سبب فلا مزيد عليه . . » (٢) .

فللطرطوشى اذن كتاب اسمه « كتاب الأسرار » ، ويبدو من هده الشواهد أن الكتاب يتناول موضعات تتصل بالانسان والعقل ، وبالقضاء والقدر ، وما يشبهها من موضوعات .

٥ - والكتاب الخامس ذكره ثلاثة من المؤرخين ، ولكنهم لم يحددوا عنوانه .

ذكره حاجى خليفة في « كشف الظنون » ، فقال : ومن بين كتب الطرطوشي (كتاب يعارض به كتاب الاحياء للغزالي » (٢) .

وقال الحميرى في « صفة جزيرة الأندلس » عند ترجمته للطرطوشي :

⁽١) سراج الملوك ، ص ١٢٢ .

^{. (}٢) سراج الملوك ، ص ٣٤٩ .

⁽٣) وذكره أيضًا : الزركلي في الأعلام مند ترجمته للطرطوشي . ١

« وعاصر الفزالى ، وله فى احيائه كلام ، وكان منحرفا عنه سيىء الاعتقاد فيه » .

وذكر الضبى في « بغية الملتمس » ، فقال :

« وله كتاب كبير يعارض به كتاب الاحياء ، رأيت منه قطعة يسيرة » وقد بحثت كثيرا عن هذا الكتاب فلم أعثر له على أثر ، وانما عثرت على ما يفيد أن الطرطوشي كتب رسالة لصديق له يذكر فيها أنه اجتمع بالغزالي وتحدث اليه وناقشه في موضوعات كثيرة ، ويشير الى رأيه في الاحياء وينقده .

وقد ذكرنا من قبل أن الطرطوشي لم يقابل الفزالي في بفداد: وأنه حاول مقابلته في بيت المقدس فلم يوفق ، ولكننا نرجح أن العالمين تقابلا في مدينة الاسكندرية بعد ذلك ، فأن المراجع التي ترجمت للفزالي تذكر أنه زار الاسكندرية في السنوات الأخيرة من حياته ، وأنه كان يزمع السفر منها الي بلاد المغرب لزيارة الأمير يوسف بن تاشفين ، ولكنه تلقى أثناء مقامه من الاسكندرية خبرا بموت يوسف بن تاشفين : فعدل عن عزمه ، وعاد الى وطنه « طوس » .

ونحن نعرف أن يوسف بأن تاشفين توفى سنة . . ٥ هـ ، وفى هذه السنة كان الطرطوشى يقيم فى الاسكندرية ، فلابد اذن أن يكون العالمان قد تقابلا فى الاسكندرية فى هذه السنة .

وللسيد محمد المرتضى الزبيدى ـ وهو واحد من كبار علماء مصر فى القرن الثامن عشر ـ شرح كبير لكتاب « احياء علوم الدين » يقع فى عشرة أجزاء كبار ، سماه : « اتحاف السادة المتقين بشرح اسرار احياء علوم الدين » ، وقد عرض فى مقدمته للعلماء السابقين اللذين تناولوا احياء الفــزالى بالدراسة أو بالمدح والتقريظ ، أو بالنقد والتجريح ، وذكر من بين الناقدين العالمين المالكيين : المازرى ، والطرطوشى ، وعرض أولا كلام المازرى فى الاحيـاء ، فاستطرد فعرض لكلام الطرطوشى وقال :

« هذا كلام المازري ، وسبقه الى قريب منه من المالكية الامام أبو الوليد الطرطوشى نزيل الاسكندرية ، فذكر فى رسالته الى أبى مظفر (١) :

« فأما ما ذكرت من أمر الفزالى فرأيت الرجل وكلمته ، فرأيته من أهل العلم ، قد نهضت به فضائله ، واجتمع فيه العقل والفهم وممارسسة العلوم طول عمره ، وكان على ذلك طول زمانه ، ثم بدا له البعد عن طريق العلماء ، فدخل فى غمار العمال ، ثم تصوف ، فهجر العلوم وأهلها ، ودخل فى علوم الخواطر وارباب القلوب ووساوس الشيطان ، ثم شابها بآراء الفلاسفة ورموز الحلاج ، وجعل يطعن على الفقهاء والمتكلمين ، فلقد كاد ينسلخ من الدين ، فلما عمل الاحياء عمد يتكلم فى علوم الأحوال ومرامز الصوفية ، وكان غير يتكلم فى علوم الأحوال ومرامز الصوفية ، وكان غير أنيس بها ، ولا خبير بمعرفتها ، فسقط على أم رأسه ،

هذه هى الفقرة التى نقلها المرتضى الزبيدى لعرض رأى الطرطوشى فى الغزالى واحيائه ، ومنها نفهم أن الطرطوشى لم يؤلف كتابا فى معارضة الاحياء ، وانما كتب رسالة الى صديق له هو ابن مظفر أبدى فيها رأيه فى الغزالى وكتابه ، ومنها يتأكد كذلك استنتاجنا السابق أن العالمين تقابلا ودارت بينهما مناقشات ومساحلات علمة .

ولم يستطع الطرطوشي في أول الرسالة أن يخفى اعجابه بالغزالي فصرح بأن الرجل من أهل العلم ، وقد اجتمع فيه العقل والفهم

[:] انظر ما كتبه العالم الاسباني Asin عن هذه الرسالة ف Asin (m): Un Laquin siciliano lontradicor de algazab (lentenario della nascita de m chele amari : Estrauo. Palermo, 1910).

وممارسة العلوم طول عمره ، ولكنه لم يلبث أن استدرك فقال ما قال يحرح الرجل وكتابه .

والذى نراه أن الطرطوشى كان متحاملا ومتجنيا على الفزالى ، وتفسير هذا التحامل بسيط ، فهو نوع من الغيرة التى تنشأ عادة بين العلماء المتعاصرين : فالرجلان ولذا في سنة واحدة ، وأن كان الفزالى ولذ في طوس في أقصى الشرق ، والطرطوشى ولذ في طرطوشة في أقصى الفرب ، والغزالى شافعى ، والطرطوشى مالكى ، والرجلان اشتغلا بالعلم وتحصيله ودراسته وتدريسه في الحقبة الأولى من حياتهما ، ثم ركنا الى حياة الزهد والتصوف حتى عدا من المتصوفة الزاهدين في أخريات حياتهما ، والطرطوشى أدرك شهرة وذاع صيته في الشام أولا ثم في الاسكندرية ثانيا ، والفزالى طبق ذكره الآفاق في جميع أنحاء العالم الاسلامى ، وخاصة بعد تأليفه « المنقذ من الضلال » و « احياء علوم الدين » ، وقد سبقته شهرته الى الاسكندرية قبل وصوله اليها ، ولم يكن للطرطوشى وقتذاك مؤلف يستطيع أن يطاول به « الاحياء » .

لهذا جاء نقد الطرطوشى للغزالى وكتابه ضعيفا متهافتا ، لا يزيد على أن يضم بعض الاتهامات التى لا تقوم على دليل ، ولهذا لم يعن المرتضى الزبيدى بالرد على كلام الطرطوشى كثيرا ، بل نقل ردا لعالم آخر عليه ، نقل رد السبكى الذى أورده في « طبقات الشافعية » ، قال السبكى :

« وأما كلام الطرطوشى فمن الدعاوى العارية عن الدلالة ، ولا أدرى كيف استجاز في دينه أن ينسب هذا الحبر الى أنه دخل في وساوس الشيطان ، ولا من أين اطلع على ذلك .

وأما قوله: شابها بآراء الفلاسفة ورموز الحلاج، فلا أدرى أى رموز فى هذا الكتاب غير اشارات القوم التى لا ينكرها عارف ، وليس للحلاج رموز يعرف بها .

وأما قوله: كاد ينسلخ من الدين ، فيا لها كلمة وقاه الله شرها .

وأما دعواه أنه غير أنيس بعلوم الصوفية ، فمن الكلام البارد ، فأنه لا يرتاب ذو نظر بأن الغزالي كان ذا قدم راسخ في التصوف ، وليت شعرى أن لم يكن الغزالي يدري التصوف فمن يدريه ؟!

وأما دعواه انه سقط على أم رأسه ، فوقعة من العلماء بغير دليل ، فانه لم يذكر لنا بماذا سقط ، كفاه الله وأيانا غائلة التعصب .

وأما الموضوعات في كتابه ، فليت شـــعرى أهو واضعها حتى ينكر عليه ؟ !

ان هذا الا تعصب بارد وتشنيع بما لا يرتضيه ناقد » .

والحقيقة أن الغزالى اذا قورن بالطرطوشى يبزه ويتفوق عليه فى جميع النواحى * فالغزالى امام مدرسة فكرية كبيرة ، وكان لآرائه وكتبه وفلسفته آثار جد واضحة على الفكر الاسلامى والمجتمع الاسلامى قرونا طويلة ، ولا يصح أن نأخذ نقد الطرطوشى هنا الا على أنه نوع من الغيرة التى تثيرها الخصومة بين العلمساء المتعاصرين المتنافسين .

٦ ـ والكتاب السادس هو كتاب ((سراج الملوك)) :

وهو أهم كتبه جميعا وأقيمها ، وهو واحد من كتب الطرطوشي القليلة التي وصلتنا ، فأن معظم كتبه قد فقدت للأسف ، وهو الكتاب الوحيد من بين هذه القلة الباقية الذي طبع أكثر من مرة ، والى سنة ١٩٥٩ لم يكن قد طبع من كتب الطرطوشي غير هسذا الكتاب ، وفي هذه السنة (١٩٥٩) طبع له كتاب ثان هو «كتاب الحوادث والبدع » وسنتكلم عنه بالتفصيل فيما يلي :

وقد ذكرنا من قبل أن الطرطوشي ألف « سراج الملوك » بعيد اطلاق سراحه من المعتقل الذي حددت فيه أقامته في الفسطاط » وأنه ألفه في الاسكندرية خلال سنة كاملة ، من شوال سنة ١٥٥ هـ الى شوال سنة ١٥٥ هـ ، وأنه قدمه هدية الى الوزير الذي أطلق سراحه وهو المأمون البطائحي ، وقال في الاهداء ـ مشيدا بذكر هذا الوزير وعدله:

(ولما رأيت الأجل المأمون ، تاج الخلافة ، عن الاسلام ، فخر الأنام ، نظام الدين ، خالصة أمير المؤمنين ، أبا عبد الله محمد الآمدى ، ادام الله عزاز الدين نصره ، وأنفذ في العالمين بالحق امره ، وأوزع كافة الخلق شكره ، وكفاهم فيه محذوره وضره ، فقد تفضل الله تعالى به على المسلمين ، فبسط فيهم يده ، ونشر في مصالح احوالهم كلمته ، وعرف الخاص والعام يمنه وبركته ، وتقلد أمور الرعية ، وسار فيهم على الحسن قضية ، متحريا للصواب ، راغبا في الثواب ، طالبا سبل العدل ومناهج الانصاف والفضل ، رغبت أن أخصه بهذا الكتاب ، رجاء لطف الله تعالى (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ، وما عملت من خير محضرا ، وما عملت من ضير محضرا ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا) ، ولتذكر فضائله ومحاسنه ما بقى الدهر ، كما قيل :

الناساس يهسدون على قدرهم

لكنني اهـــدي على قــدري

يهدون ما يفني ، وأهـدى الذي

يبقى عملى الأيام والدهمر .

ثم يملل الطرطوشي السبب في اهدائه الكتاب الى المأمون ، ويلمح الى موقف الافضل منه ومن العلماء ، ويدعو الوزير الجديد الى أن

يقف موقفا آخر من العلماء ، فهم السياج الذى يمنع الحكام من الظلم ، ومن أن يسدروا في غيهم ، فيقول:

« أن العلم عصمة الملوك والأمراء ، ومعقل السلاطين والوزراء ، لأنه يمنعهم من الظلم ، ويردهم الى الحلم ، ويصدهم عن الأذية ، ويعطفهم على الرعية ، فمن حقهم أن يعرفوا حقه ، ويكرموا حملته ، ويستبطنوا أهله » .

والطرطوشى فى هـــذا الكتاب من الطلائع ، ومن رواد الفكر الاسلامى الأوائل الذين حاولوا التأليف فى علم السياسة وفن الحكم ، فالعلماء المسلمون الذين الفوا فى هذا الفن قليلون ، منهم : الغزالى فى كتابه « الذهب المسبوك فى نصيحة الملوك » والطرطوشى فى كتابه « سراج الملوك » ، والشيزرى فى كتابه « المنهج المسلوك فى سياسة الملوك » ، وابن طباطبا فى كتابه « الفخرى فى الآداب السلطانية » وغيرهم ،

وخيرهم جميعا ابن خلدون في مقدمته .

وقد أشار ابن خلدون فى مقدمته الى كتاب الطرطوشى « سراج الملوك » ، واعترف أنه من المفكرين القلائل الذين سبقوه بالتأليف فى علم الاجتماع أو العمران ، ولكنه قال أن الطرطوشى أحسن فى تقسيم كتابه وتحديد موضوعاته ، ولكنه لم يحسن علاج هذه الموضوعات أو التفكير فيها أو عرضها ، أو هو – على حد قول أبن خلدون – :

« حوم على الفرض ولم يصادفه ، ولا تحقق قصده ولا استوفى مسائله » .

والطرطوشى قسم كتابه « سراج الملوك » الى اربعة وستين فصلا ، جعل الفصل الأول في « مواعظ الملوك » ، والفصل الثانى في « مقامات العلماء والصالحين عند الأمراء والسلاطين » ، ومن بينها فصل لمنافع السلطان ومضاره ، وفصل آخر « لمعرفة الخصال التى هى قواعد السلطان » » وفصل للوزراء . . وهكذا ، وعقد

فصلا خاصا للحديث عن « علاقة السلطان بالجند وبيت المال » ، وفصلا للحديث عما يصلح الرعية من الخصال ، وما الى هذا من موضوعات كثيرة تتصل بسياسة الملك وفن الحكم وتدبير أمور الرعيسة .

ومنهج الطرطوشى فى تأليف هذا الكتاب أن يبدأ الفصل بتقرير المبدأ الخلقى الذى يرى أن يتحلى به صاحب الوظيفة سواء أكان ملكا أم وزيرا أم واليا أم قاضيا ، وقد يشرح هذا المبدأ شرحا يسيرا ولكنه لا يطيل بل يسرع بايراد كثير من الحكم والأمثال والقصص التى تؤيد صحة هذا المبدأ ، وهو يقتبس هذه الحكم والقصص والنوادر من سير الأنبياء والخلفاء والصالحين ، ومن سير الماوك والحكماء السابقين من مختلف الأجناس والعصور .

فالطرطوشى فى كتابه واحد من المفكرين الذين لا يفرقون بين السياسة والأخلاق ، بل هو يراهما شيئا واحدا متفقا ، وهو يشبه فى هذا فلاسفة اليونان القدامى ومفكريهم ، ويختلف اختلافا كبيرا عن فلاسفة أوربا فى عصر النهضة والعصر الحديث من أمثال : هوبز ، ولوك ، وروسو ، وهيجل ، وماركس ، الذين كانوا يفرقون بين السياسة والأخلاق ، ويفكرون فى مشاكل السياسة وموضوعاتها تفكيرا مستقلا عن تفكيرهم الخلقى ، وهو يشبه فى هذا أنداده من المفكرين الاسساسة والأخلاق .

وابن خلدون يعترف للطرطوشى بفضل الأسبقية فى ارتياد هذا الموضوع ، ولكنه أراد فى نفس الوقت أن يتعالى عليه ، وأن يفخر بما آناه الله من نعمة التوفيق فى مقدمته ، قال :

« وكذلك حوم أبو بكر الطرطوشي في كتابه سراج الملوك ، وبوبه على أبواب تقرب من أبواب كتابنا هذا ومسائله ، ولكنه لم يصادف فيه الرمية ، ولا أصاب الشاكلة ، ولا أستوفى المسائل ، ولا أوضح الأدلة ؛

وانما يبوب للمسألة ، ثم يستكثر من الأحاديث والآثار ، وينقل كلمات متفرقة لحكماء الفرس وغيرهم من أكابر الخليقة ، ولا يكشف عن التحقيق قنساعا ، ولا يرفع بالبراهين الطبيعية حجاجا ، وانما هو نقل وترغيب شبيه بالمواعظ ، وكأنه حوم على الفرض ولم يصادفه ، ولا تحقق قصده ، ولا استوفى مسائله ، ونحن الهمنا الله ذلك الهاما)) .

وانصافا للطرطوشى نقول ان هدفه من تأليف سراج الملوك لم يكن كهدف ابن خلدون من تأليف المقدمه هدفا علميا خالصا ، وانما كان هدفه فنيا ، يريد أن يؤثر في النفوس بالقصة يرويها ، أو المثل والحكمة والموعظة الحسنة ، يلمح ولا يصرح .

حقيقة أن الطرطوشى لم يكن ندا لابن خلدون ، ولكن من العدل أن يقاس نجاح المؤلف بمقدار نجاحه فى تحقيق أهدافه التى كان يتطلع اليها عند وضع مؤلفه ، والحقيقة أن « سراج الملوك » كتاب حافل بالقصص الممتعة والأخبار الطريفة والنوادر الشائقة ، كما ضمنه الطرطوشى كثيرا من تجاربه المفيدة ونظراته السديدة وآرائه القيمة ، مما يدل على اطلاع واسع ومعرفة شاملة لمسائل الفقه والشريعة والتاريخ والأدب .

ومن الفصول القيمة في هذا الكتاب الفصل الذي عقده للدلالة على فضل الولاة والقضاة اذا عدلوا » فهو يقول في أوله:

« ليس فوق رتبة السلطان العادل رتبة ، كما أن خيره يعم ، كذلك ليس دون رتبة السلطان الجائر الشرير ، الأن شره يعم .

وكما أن بالسلطان العادل تصلح البلاد والعباد ، كذلك بالسلطان الجائر تفسد البلاد والعباد ، وتقترف المعاصى والآثام ، وذلك أن السلطان اذا عدل انتشر العدل في رعيته ، فأقاموا الوزن بالقسط ، وتعاطوا

الحق فيما بينهم ، واذا جار السلطان انتشر الجور وعم العباد ، فرقت اديانهم ، واضمحات مرءاتهم ، ففشت فيهم المعاصى ، وذهبت أمانتهم ، فضعفت النفوس ، وقنطت القلوب ، فمنعوا الحقوق ، وتعاطوا الباطل ، وبخسوا الكيال والميزان . . فرفعت منهم البركة ، وأمسكت السجاء غيثها . . » .

ويروى الطرطوشى حادثة من مشاهداته بالاسكندرية للدلالة على أن السلطان أذا جار وظلم انتشر الجور وعم البلاد ، فرفعت البركة ، وقل الرزق ، يقول :

« وشهدت أنا بالاسكندرية والصيد في الخليج مطلق للرعية ، والسمك فيه يغلى المساء به كثرة ، ويصيده الأطفال بالخرق ، ثم حجره الوالى ومنع الناس من صيده ، فذهب السمك حتى لا يكاد يرى فيه الا الواحدة الى يومنا هذا » .

ويعلق على هذا الخبر مرة أخرى بقوله :

« وهكدا تتعدى سرائر الملوك وعزائمهم ومكنون ضمائرهم الى الرعية ، أن خيرا فخيرا ، وأن شرا فشر ».

ومن كلماته القيمة في وصف خطورة منصب السلطان والمهام الملقاة على عاتقه :

(. . الخلق في شغل عنه وهو مشمول بهم ، والرجل يخاف عدوا واحدا ، وهو يخاف ألف عدو ، والرجل يضيق بتدبير أهل بيته وايالة ضيعته ، وهو مدفوع لسياسة أهل مملكته ، وكلما رتق فتقا من حواشي مملكته انفتق آخر ، وكلما لم منها شاعثا رث لخر . . » .

وهو يبرهن على ضرورة قيام الحكومات بالاشراف على شؤون

الرعية ، والزام كل فود حقوقه وحدوده ، والانتصاف للمظلوم من الظالم بقوله:

« جبلت الخلائق على حب الانتصاف وعلم الانصاف ، ومثلهم بلا سلطان ، كمثل الحلوت في البحر ، يزدرد الكبير الصلفير ، فمتى لم يكن لهم سلطان قاهر لم ينتظم لهم أمر » .

ومن عجب أن الطرطوشي الذي غمز الغزالي غمزته التي أشرنا اليها ، ونقد موسوعته الضخمة « احياء علوم الدين » قد تأثر به وحاكاه عندما أراد أن يؤلف كتابه « سراج الملوك » ، فقد بدا لي أن أقارن بين كتاب الغزالي « الذهب المسبوك في نصيحة الملوك » وكتاب الطرطوشي « سراج الملوك » فتبين لي أن منهج الرجلين واحد، فكلاهما يمزج تفكيره الأخلاقي بتفكيره السياسي مزجا تاما ، وكلاهما يبدأ الفصل بتقرير المبدأ الأخلاقي تقريرا موجزا ، ثم يورد من قصص الأقدمين وحكمهم وأمثالهم ما يبرهن به على صحة هدا المدا .

والغزالى أهدى كتابه الملك سلجوقى هو السلطان محمد بن ملك شاه ، والطرطوشى أهدى كتابه لوزير فاطمى كان يتمتع بسلطان المطلق ، هو المأمون البطائحى .

وقد يتردد الدارس الناقد طويلا قبل أن يحكم على بعض الفقرات المتشابهة في الكتابين بأنهما من باب توارد الخواطر .

وسنورد فيما يلى مثالين يؤيدان ما لاحظناه من تشابه بين الكتابين في بعض الأفكار ، وفي التعبير عنها .

يقول الفزالى عند حديثه عن مكانة العلماء ، وما يجب على الملوك والولاة من تقربهم اليهم واستشارتهم والأخذ بنصيحتهم :

« أيها السلطان : خطر الولاية عظيم ، وخطبها جسيم ، ولا يسلم الوالى الا بمقاربة علماء الدين

ليعلموه طرق العدل ، ويسهلوا عليه خطر هـــذا الأمر » .

ويقول الطرطوشي في هذا المعنى:

« ان العلم عصمة الملوك والأمسراء ، ومعقسل السلاطين والوزراء ، لأنه يمنعهم من الظلم ، ويردهم الى الحلم ، ويصدهم عن الأذية ، ويعطفهم عسلى الرعية ، فمن حقهم أن يعرفوا حقه ، ويكرموا حملته ، ويستبطنوا أهله » .

ويقول الغزالى عند حديثه عن أثر السلطان العادل أو السلطان الجائر في الرعية وعمران البلدان:

« ينبغى أن تعلم أن عمارة الدنيا وخرابها من اللوك ، فاذا كان السلطان عادلا عمرت الدنيا وأمنت الرعايا . . ، وإذا كان السلطان جائرا خربت الدنيا » .

ويقول الطرطوشي في نفس المعنى :

« ليس فوق رتبة السلطان العادل رتبة كما أن خيره يعم ، وكما أن بالسلطان العادل تصلح البلاد والعباد ، كذلك بالسلطان الجائر تفسيد البلاد والعباد » .

ولكن من الانصاف أن نذكر أن كتاب « الذهب المسبوك » للغزالي موجز ، فقد قسمه الى سبعة أبواب ، تناول فيها أمهات المسائل ، أما كتاب « سراج الملوك » للطرطوشي فكتاب ضخم مفصل قسمه الى أربعة وستين بابا ، وقد تناول فيه كثيرا من الموضوعات التي لم يعرض لها الغزالي في كتابه ، وحصيلة الطرطوشي في سراج الملوك من القصص والنوادر والحكم والأخبار التاريخية والمسائل الفقهية اغنى وأوفر من حصيلة الغزالي في كتابه « الذهب المسبوك » .

٧ - والكتاب السابع هو ((كتاب الحوادث والبدع)) :

أو كتاب « بدع الأمور ومحدثاتها » _ كما تسمية بعض المراجع ، ذكره: ابن خلكان في « الوفيات » ، وابن فرحون في « الديباج المذهب » ، والحميري في « صفة جزيرة الأندلس » ، والمقرى في « نفح الطيب » ، وحاجى خليفة في « كشف الظنون » ، وبروكلمان في « تاريخ الآداب العربية » .

وأشار الأخير الى أنه توجد من هذا الكتاب نسخة خطية وحيدة في الكتبة القومية بمدريد تحت رقم ٥٤٣١ .

وهذا هو ثانى كتاب طبع من مؤلفات الطرطوشى ، نشره أخيرا في سنة ١٩٥٩ الأستاذ محمد الطالبى من علماء تونس نشرة علمية محققة ضمن « مطبوعات كتابة الدولة للتربية القومية » بالجمهورية التونسية .

وذكر الاستاذ الناشر في مقدمته أنه توجد نسخة خطية ثانية من الكتاب في المكتبة الاحمدية بجامع الزيتونة ضمن مجموع خطى رقم ٣٣٨٧ ؛ وقد كتبت هذه النسخة في سنة ١٠٥٨ هـ ، وتقع هـ ذه عن نسخة أخرى عتيقة مؤرخة بسنة ٨٤٩ هـ ، وتقع هـ ذه النسخة في ست وخمسين صفحة ، وتشتمل كل صفحة على نحو الثلاثين سطرا .

أما نسخة مدريد فتوجد هى كذلك ضمن مجموع يضم مؤلفات أخسرى من بينها مؤلفان آخسران للطرطوشى ، هما : كتاب « بر الوالدين » ، ورسالة « تحريم الفناء واللهو على الصوفية » ، وسنعرض لذكرهما فيما يلى :

ومخطوطة مدريد (١) من كتاب « الحوادث والبدع » تقع في ١٦ صفحة ، في كل صفحة ٢٨ سطرا .

وقد اعتمد الأستاذ الطالبي على هاتين المخطوطتين عند طبع الكتاب ، وقدم له بمقدمة في ١٣ صفحة ترجم فيها للطرطوشي ترجمة مختصرة ، ووصف المخطوطتين ، وحلل الكتاب وبين أهميته .

والكتب التى ألغت فى موضوع البدع قليلة ، أقدمها كتاب « الرد على أهل البدع » لمحمد بن سحنون (٢٠٢ ــ ٢٥٦ هـ) ، لم يصلنا ، وانما ذكره القاضى عياض فى « المدارك » (٢) .

ولمعاصره أبى عبد الله محمد بن وضاح القرطبى (197 - 747) كتاب « البدع والنهى عنها » (7) ، تشره محمد أحمد دهمان ، وطبع فى دمشق سنة 1759 هـ (1974) .

ولأبى زكريا يحيى بن عون المتوفى سنة ٢٩٨ هو كتاب فى الرد على أهل البدع ، ذكره القاضى عياض « فى المدارك » كذلك ، ولا وجود له .

⁽۱) انظر المقال الذي كتب عن هـذه المخطوطة في المجلة الملكية الأكاديمية التاريخية باسبانيا :

⁽Il Boletin de la Real Academia de la Historia. T. LXII. cuad. IV. Abril 1913. P. 238).

وانظر كذلك مقدمة الترجّمة الأسبانية لكتاب « سراج الملوك » . (Alarcon. m. : Lampora de los principes por Abubequer de Tortosa - trad. Espan - , madrid. 1930 - 1931) .

⁽۲) انظر مقدمة الطالبی لکتاب « الحوادث والبدع » ، ص ۷ : وانظر ترجمة محمد بن سحنون فی : (المالکی : ریاض النفوس ، نشر الدکتور حسین مؤنس ، ج ۱ ، ص ۳٤٥ – ۳۲۰) ۰

 ⁽٣) مقدمة الطالبي ، ص ٦ ، انظر ترجمة ابن وضاح في (ابن الفرضي : تاريخ العلماء ، القاهرة ١٩٥٤) .

وبذلك يكون أول كتاب وصلنا فى موضوع البدع هو كتاب ابن وضاح القرطبى ، والكتاب الثانى هو كتاب الطرطوشى « الحوادث والبدع » .

وقد عرض لموضوع البدع بعد الطرطوشى مؤلفون آخرون ، نذكر من بينهم المؤرخ الدمشقى _ صاحب كتاب الروضتينوذيله _ ش_هاب الدين أبا محمد عبد الرحمن بن اسماعيل المعروف بأبى شامة ، والمتوفى سنة ٦٦٥ هـ ، وله كتاب « الباعث على انكار البدع والحوادث » ، نشره محمد فؤاد منقادة الطراباسى ، وطبع في القاهرة سنة ١٩٥٥ ، واعتمد فيه كثيرا على كتاب « الحوادث والبدع » للطرطوشى .

ومنهم أبو عبد الله محمد بن محمد العبدرى القيروانى التلمسانى ، المشدهور بابن الحاج الفاسى ، والمتوفى بالقداهرة سنة ٧٣٧ هـ ، وقد عالج موضوع البدع في كتابه الكبير « المدخل » ، وأشار فيه ألى كتاب الطرطوشى وأفاد منه .

ومنهم أبو اسحاق ابراهيم بن موسى بن محمد اللخمى الشاطبى ثم الفرناطى (١) ، المتوفى سنة .٧٩ هـ ، وله كتاب « الاعتصام » فى البدع ، نشره وقدم له الشيخ محمد رشيد رضا فى ثلاثة أجزاء ، وطبع فى مطبعة المنار بالقاهرة سنة ١٣٣١ هـ (١٩١٣) .

هذه هى الكتب التى استطعت أن أعثر عليها فى موضوع البدع ، وهى كلها _ فيما عدا كتاب الباعث لأبى شامة _ لؤلفين مغاربة أو أندلسيين وطنا ، مالكيين مذهبا ، وليس هذا من باب الاتفاق المحض ، بل أن السبب يكمن فى انتسابهم لهذا الوطن ولهذا المذهب ، فالمفاربة منذ عرفوا مذهب مالك وهم شديدو التعلق به ، فقد وجدوا فيه العاصم من مساوىء الخلافات المذهبية التى أشاعت الفرقة فى المشرق الاسلامى ، ومذهب مالك يلتزم القرآن

⁽۱) انظر ترجمته في : (أحمد بابا التنيكي : نيل الابتهاج بتطريز الديباج) و (سركيس : معجم المطبوعات العربية) .

والسنة التزاما تاما ، ويأبى ما عداهما ، ولذلك اعتبر كل انحراف عن أحكام القرآن والسنة بدعة ، ولهذا حرص الفقهاء والعلماء المفاربة والأندلسيون على تتبع هذه البدع وحصرها وتفنيدها والرد عليها .

وقد آمن الطرطوشى ، ومن نهج نهجه ممن الفوا فى البدع أن العصر الذهبى هو عصر النبى عليه السلام وصحابته الأكرمين ، وأن كل اصلاح يجب أن يكون بالرجوع الى مثل هذا العصر الأول ، وأن كل انحراف عن هذه المثل يعتبر بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار .

وقد عرف الطرطوشي البدعة ـ في كتابه هذا ـ بقوله :

« أصل هذه الكلمة من الاختراع ، وهو الشيء يحدث من غير أصل سبق ، ولا مثال احتذى ، ولا ألف مثله ، ومنه قولهم : ابتدع الله الخلق ، أى خلقهم ابتداء ، ومنه قوله تعالى :

« بديع السموات والأرض » ٠ وقوله :

« قل ما كنت بدعا من الرسل » ، أى لم أكن أول رسبول الى أهل الأرض .

وهذا الاسم يدخل فيما تخترعه القلوب ، وفيما تنطق به الالسنة ، وفيما تفعله الجوارح . . الخ » .

والطرطوشى يشرح فى مقدمة « الحوادث والبدع » موضوع الكتاب ، والهدف من تأليفه ، ويقسم البدع نوعين : نوع اتفق المسلمون جميعا على أنه بدعة مستحدثة ، ونوع اشتبه أمره على الناس ، فظنوه عبادات وقربات ، وحسبوه طاعات وسننا ، وهو ليس كذلك ، وهذا النوع الثانى هو الذى أراد الطرطوشى أن يجلو أمره للمسلمين لتزول الشبهات ، قال :

« هذا كتاب أردنا أن نذكر فيه جملا من بدع الأمور ومحدثاتها التى ليس لها أصل في كتاب الله وسنته ، ولا اجماع ولا غيره ، فألفيت ذلك ينقسم قسمين :

قسم يعرفه الخاصة والعامة انه بدعة محدثة ، اما محرمة واما مكروهة ، وقسم يظنه معظمهم ـ الا من عصم الله ـ عبادات وقربات وطاعات وسننا .

أما القسم الأول فلم نتعرض لذكره ، اذ كفينا مؤونة الكلام فيه لاعتراف فاعله أنه ليس من الدين . وأما الثاني فهو الذي قصمدنا جمعه وايقاف المسلمين على فساده ووبال عاقبته » .

وقد قسم الطرطوشي بحثه الى أربعة أبواب:

- الباب الأول: فيما انطوى عليه الكتاب العزيز من الأمور التى ظاهرها سلم جرت الى هلك .

- والباب الثانى: فيما اشتملت عليه السنة من النهى عن محدثات الأمور .

ـ والباب الثالث : في أساليب الصحابة في كيفية ضبطهم للقانون الذي تحفظ به قواعد الدين وتموت البدع .

وقد فرع المؤلف هذه الأبواب بعد ذلك الى فصول وفروع ، ومعظم الحوادث التى تخضع لنقد المؤلف مما يتصل بالعبادات ، وبعضها مما يتصل بسلوك المسلمين في مجتمعهم ، وان كان من المسير في الواقع أن نفرق بين هذه وتلك ، فالمجتمع في عصر الطرطوشي مجتمع اسلامي ، يخضع في كل صغيرة وكبيرة لأحكام الشريعة الاسلامية ، والدين الاسلامي دين عبادات ومعاملات .

ومن الموضوعات التى تناولها الطرطوشى فى كتابه موضوع « صلاة التراويح وأحكامها » وهل الأفضل أن تصلى فى البيوت أو فى المساجد والجماعات ، واذا صلاها المصلى فى بيته فهل الأفضل ان يصليها منفردا أو يصيلها بأهل بيته واخوانه ان حضروا . .

وفى الباب الرابع يفصل الطرطوشى الحديث عن قراءة القرآن وكتابته ، وعن آداب المسجد وقراءة القصص فيه ، وعن الاحتفال بليلة النصف من شهر شعبان وصيام شهر رجب ؛ ثم ختمه بايراد مجموعة من البدع المستحدثة فى التعزية والمآتم والجنائز وغيرها .

والمؤلف يستنكر قراءة القرآن بالألحان ، ويحتذى في هذا حذو الامام مالك الذي يقول:

« ولا تعجبنى القراءة بالألحان ، ولا أحبها فى رمضان ولا فى غيره ، لأنه يشبه الفناء ويضحك بالقرآن ، ويقال : فلان أقرأ من فلان ، وبلغنى أن الجسوارى يعلمن ذلك كما يعلمن الفناء ، أترى هذا من القراءة التى كان يقرأ بها رسسول الله صلى الله عليه وسلم ؟! » (١) .

وقد أورد الطرطوشي في هذا الفصل معلومات تفصيلية طريفة وقيمة عن بدء القراءة بالألحان والمستغلين بها ، والمصطاحات التي وضعوها لهذا الفن ، وعن الألحان وأنواعها ومسمياتها . الخ قال :

(فأما أصحاب الألحان فأنما حدثوا في القرن الرابع (٢) ، منهم : محمد بن سعيد صاحب الألحان ، والكرماني ، والهيثم ، وأبان . . فكانوا مهجورين عند العلماء ، فنقلوا القراءة الى أوضاع لحون الأغاني ، فمدوا المقصور ، وقصروا الممدود ، وحركوا الساكن ،

⁽¹⁾ الحوادث والبدع ، ص ٧٥ .

⁽٢) كذا في الأصل ، والصواب : القرن الثالث .

وسكنوا المتحرك ، وزادوا فى الحرف ونقصوا فيه ، وجزموا المتحرك ، وحركوا المجزوم ، لاستيفاء نغمات الأغانى المطربة .

ثم اشتقوا لها أسماء ، فقالوا:

۔ شلر

۔ ونبر

_ وتفريق

ــ وتعليق

_ وهز

ـ وخز

ـ وزمر

۔ وزجر

ـ وحذف

ـ وتشريق

ـ واستجاح

- وصياح

ثم يقولون : مخرج هذا الحرف من الأنف ، وهذا من الرأس ، وهذا من الصدر ، وهذا من الشدق :

- _ فما خرج من القحف فهو صياح .
 - _ وما خرج من الجبهة فهو زجر .
 - _ وما خرج من اللهوات فهو نبر .
 - _ وما خرج من الأنف فهو زمر .
- _ وما خرج من الحلق فهو خرير وشادر .
 - _ وما خرج من الصدر فهو هرير .
 - وسموها لحونا .

ثم جعلوا لكل لحن منها اسما مخترعا ، فقالوا :

_ ((اللحن الصقلبي)): فاذا قراوا قوله تعالى: (واذا قيل ان وعد الله حق)) كل مقصون في هذه الآية كرقص الصقالبة بأرجلها وفيها الخلاخيل ، ويصفقون بأيديهم على ايقاع الأرجل ، ويرجعون الأصوات بما يشبه تصفيق الأيدى ورقص الأرجل ، كل ذلك على نفمات متوازنة .

ومن ذلك: ((الرهب)): أن نظروا الى كل موضع فى القرآن فيه ذكر المسيح ، كقوله تعالى: « انما المسيح عيسى بن مريم » ، وكقوله تعالى: « واذ قال الله يا عيسى بن مريم » ، فمثلوا أصواتهم فيه بأصوات النصارى والرهبان والأساقفة فى الكنائس .

ومن ألجانهم في القرآن أ

- ۔ النبطی .
- ـ والرومى .
- _ والحسانى .
 - _ والمكسى .
- ـ والاسكندراني .
 - والمصرى .
 - ـ والكاروندى .
 - ب والراعي .
 - السا
 - _ والديباجي .
 - _ والياقوتى .
 - ـ والعروسي .
 - ـ والزرجون .
 - ـ والمرجى .
 - _ والمجوسى .
 - _ والزنجي .
 - _ والمنمنم .
 - _ والسندى .

وغيرها ، كرهنا ذكر التطويل بها .

فهذه أسماء أبتدعوها في كتاب الله تعالى ، « ما أنزل الله بها من سلطان » ؛ فالتالى منهم والسامع لا يقصدون فهم معانيه من أمر أو نهى ، أو وعد ، أو وعيد ، أو وعظ ، أو تخويف ، أو ضرب مثل ، أو اقتضاء حكم ، أو غير ذلك مما أنزل به القرآن ؛ وأنما هو للذة والطرب والنغمات والألحان ، كنقر الأوتار ، وأصلوات المزامير ، كما قال الله عز وجل للهم قريشا : « وما كان صلاتهم عند البيت الا مكاء وتصدية » ، وأنما أنزل القرآن لتتدبر آياته وتفهم معانيه .

قال الله تعالى : « كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته » . وقال تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن » .

وقال : « انما الرُمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا » .

وهذا يمنع أن يقرأ بالألحان المطربة والمشبهة للأغانى ، لأن ذلك يثمر ضد الخشوع ، ونقيض الخوف والوجل ، وقوله تعالى منهم : « واذا سمعوا ما أنول الى الرسول ترى أعينهم تغيض من الدمع مما عرفوا من الحق » ، وهذا يفيد الأمر بتلاوته على هذا الوجه ، وأن بكاءهم انما كان مما فهموا من معانيه ، لا من نفمات القارىء ، فأين هذا من دق الرجيل ، وثنى العطف ، وتحريك الرأس ، والصياح والزعق ، والمكاء ، والتصدية ؟ !

قال الله تعالى:

« لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله » ، فليت شعرى ما الذى يورث خشية الله تعالى ؟ الحان الكرمان ونفمات الترمذى ؟! أو فهم معانيه وتدبر آياته واستخلاص حكمه وعجائب مضمونه ؟ . . » .

وعلى هذا النمط يسير الطرطوشى فى كتابه ، فينص على البدع والمحدثات واحدة بعد واحدة ، ثم يبين وجه مخالفتها للشريعة ولمثل الحياة فى صدر الاسلام ، مستشهدا على بطلانها بالقرآن والأحاديث النبوية تارة ، وبأداء الصحابة وعلماء الاسلام – وخاصة الامام مالك وتلاميذه – تارة أخرى .

والذى نأخذه على الطرطوشى انه وانداده من فقهاء عصره لم يرتفعوا بمقاييسهم الى دعائم الاسلام ومثله الروحية العليا ، وانما نزلوا بها له في كثير من الأحيان له المور كثيرة مما يمس سلوك الانسان في حياته العادية ؛ فعد الطرطوشي من البدع :

« اتخاذ الألوان ، والأكل على الخوان ، واستعمال الطيب في آنية من الفضة » .

وعد منها:

« الاندار (أى الاعلان) للعرس وللجنازة للمباهاة والتفاخر لكثرة الناس ، وكذلك الانشاد ورفع الصوت عند حمل الجنازة » .

وعد منها:

« دخول الحمام للنساء مع الكتابيات بفير مئزر ، والمسلمين مع الكفار في الحمام » .

وعد منها:

« شرب الماء غير مص ، وأكل اللحم غير نهش » بل انه اعتبر « امتعاط العمائم » بدعة « والامتعاط هو التعمم دون الحنك » .

وعنده: أن « اسبال الثوب تحت الكعبين حرام لا يجوز ».

فالكتاب لهذا لا يعتبر مرجعا فقهيا وحسب ، بل هو كذلك مرجع طيب لدراسة المجتمع الاسلامي في أوائل القرن السادس

الهجرى (١٢ م) ، فقد الف الطرطوشى كتابه هذا أثناء مقامه في مدينة الاسكندرية ، وبعد سنة . . ٥ هـ بقليل ، أو بعد سنة . ٨ ٤ هـ على وجه التحديد ، فقد نقل عن أحد علماء بيت المقدس أن صلاة الرغائب التي تصلى في النصف من شعبان ـ وهي عنده احدى البدع ـ استحدثت في القدس لأول مرة في سنة ٨٤٤ هـ ، قال :

« وأخبرنى أبو محمد المقدسى قال : لم يكن عندنا ببيت المقدس قط صلاة الرغائب هذه التى تصلى فى رجب وشعبان ، وأول ما حدثت عندنا فى أول سنة ثمان وأربعين وأربعمائة ، قدم علينا فى بيت المقدس رجل من نابلس يعرف بابن أبى الحمراء ، وكان حسن التلاوة ، فقام فصلى فى المسجد الأقصى ليلة النصف من شعبان ، فأحرم خلفه رجل ، ثم انضاف اليهما ثالث ، ورابع ، فما ختمها الا وهم فى جماعة كثيرة ، ثم جاء فى العام القابل ، فصلى معه خلق كثير ، وشاعت ثم جاء فى العام القابل ، فصلى معه خلق كثير ، وشاعت فى المسجد ، وانتشرت الصلاة فى المسجد الأقصى وبيوت الناس ومنازلهم ، ثم استقرت كأنها سنة الى يومنا هذا ؛ فقلت له :

_ فأنا رأيتك تصليها فى جماعة ؟! قال : نعم ، واستغفر الله منها » .

« قال: وأما صلاة رجب فلم تحدث عندنا في بيت القدس الا بعد سنة ٨٠ ثمانين واربعمائة ، وما كنا رأيناها ولا سمعنا بها قبل ذلك » .

والطرطوشى فى نقده ينظر نظرة واسعة الى العالم الاسلامى ـ مشرقه ومفربه ـ ، فيأتى بالشواهد مرة من وطنه الأصــاى الاندلس ، ومرة ثانية من المغرب ، ومرة ثالثة من بيت المقدس ، ومرة رابعة من الاسكندرية وطنه الثانى وهكذا ، وميزة هده الشواهد أنها تعطى صورا من المجتمع فى مختلف أنحاء العسالم الاسلامى على عصر الطرطوشى ، أى فى النصف الثانى من القرن الخامس والنصف الأول من القرن السادس الهجريين (١١ – ١٢م) .

فهو يعيب على أهل الاسكندرية طريقتهم في قراءة القرآن بالادارة ، فيقول :

« وأما أن يجتمع القوم فيقرأون في السورة مثل ما يعمل أهل الاسكندرية ، وهو الذي يسمى القراءة بالادارة ، فكرهه مالك ، وقال : هذا لم يكن من عمل الناس » (١) .

وهو يستنكر اجتماع النساء بالرجال فى المساجد لحضور ختم القرآن ، أو للاستماع الى وعظ الواعظين ، ويشير الى ما كان يحدث فى أيامه من منكر نتيجة لهذا الاختلاط ، فيقول :

« ومن البدع اجتماع الناس بأرض الأندلس على ابتياع الحلوى ليلة سبع وعشرين من رمضان ، وكذلك على اقامة ينير (يقصد شهر يناير) بابتياع الفواكه كالعجم ، وإقامة العنصرة وخميس ابريل ، بشراء المجبنات والاسفنج ، وهي من الأطعمة المبتدعة .

وخروج الرجال جميعا أو أشتانا مع النسساء مختلطين للتفرج ، وكذلك يفعلون في أيام العيسد ، ويخرجون للمصسلى ، ويقمن فيه الخيم للتفرج لا للصلاة » (٢) .

وجماع القول أن كتاب الحوادث والبدع كتاب قيم يفيد

⁽۱) الحوادث والبدع ، ص ۷۸ ؛ وانظر كذلك ص ۱٤٩ و ١٥٠ ﻫ

⁽٢) نفس المرجع ، ص ١٤٠ -- ١٤١ .

المشتغلين بالدراسات الفقهية كما يفيد المؤرخين ورجال الآثار وعلماء الاجتماع ، فان ما فيه من استطرادات وشواهد تقدم للباحث والقارىء صبورا شائقة حية لكثير من أحسوال المجتمع الاسلامي في عصر المؤلف .

وبعد نحو قرن ونصف قرن ألف المؤرخ الدمشقى أبو شامة كتابه فى البدع ، وأسماه « الباعث على انكار البدع والحوادث » ، وواضح من العنوان أنه مقتبس من عنوان كتاب الطرطوشى ، فالأول فى « الحوادث والبدع » ، والثانى فى « البدع والحوادث » .

وكان الباعث لأبى شامة على تأليف كتابه موضـــوعا من الموضوعات التى عالجها الطرطوشى فى كتابه وافاض الحديث عنها ، وهو: « صلاة الرغائب » فى منتصف شهر شعبان وشهر رجب ، قال أبو شامة فى مقدمة كتابه:

« قلت : ثم كان من العجائب والفرائب أن وقع في زماننا نزاع في بدعة صلاة الرغائب ، واحتيج بذلك الى التصنيف المشتمل على ذم المخالف والتعنيف ، فحملتنى الأنفة للعلم ، والحمية للصدق ، على تمييز الباطل من الحق ، فألفت هـــذا الجـــزء الموصوف «بالانصاف فيما وقع في صلاة الرغائب من الاختلاف »، وأضفت الى ذلك بيان البدع في غيره مما يناسبه ، وضممت اليه ما يقاربه ، رغبة في تعليل المحن من مخالفة السنن ، وقمعا للطائفة المبتدعة . . الخ » (١) .

ونص أبو شامة على انه اتخذ من كتاب الطرطوشى أصلل البحثه ، واعتمد عليه اعتمادا كبيرا ونقل عنه كثيرا ، ونص كذلك على أنه قرأه ورواه عن شيخه أبى الحسن على بن محمد الهمدانى

⁽١) أبو شامة : الباعث على انكار البدع والحوادث ، ص ٦ •

عن تلمیذ الطرطوشی و خلیفته العالم السکندری أبی الطاهر اسماعیل ابن مکی بن عوف ، قال :

« وقد صنف الامام الشيخ الزاهد أبو بكر محمد ابن الوليد الفهرى الطرطوشى ـ رحمه الله ـ كتابا ذكر فيه جملا من بدع الأمور ومحدثاتها التى ليس لها أصل فى كتاب ولا سنة ولا اجماع ولا غيره ، وهو كتاب حسن مشحون بالفوائد على صفره ، أخبرنا به شيخنا العلامة أبو الحسن على بن محمد الهمدانى قراءة منى عليه ، قال : أنبأتا به الامام أبو الطاهر اسماعيل بن مكى ابن عوف مفتى الاسكندرية عنه ، وسننقل منه الى هذا الكتاب جملة من فوائده فى مواضعها . . » (١) .

٨ و ٩ _ والكتابان الثامن والتاسع هما :

_ كتاب بر الوالدين •

_ وكتاب _ أو رسالة _ في تحريم الفناء واللهو على الصوفية في رقصهم وسماعهم •

وتجمع بين هذين الكتابين والكتاب السابق « الحوادث والبدع » مخطوطة مدريد رقم ١٣٤١ (٢) ، فرسالة تحريم الغناء واللهو على الصوفية تشتمل على الصفحات من ١٠١ الى ١٢١ ، وكتاب

⁽١) أبو شامة : الباعث ، ص ١٢ ١٠

⁽٢) انظر القال الذي تضمن دراسة هذه المخطوطة في :

El Boletin de la Real Academia de la Historia. T. LXII, cuad IV. Abril 1913 P. 238.

[:] وانظر كذلك مقدمة الترجمة الأسبانية لكتاب سراج اللوك للطرطوشي Alarcon (m): Lampara de los principes par Abubequer de Tortosa (trad. Espan.), Madrid, 1930 - 1931.

بر الوالدين يشتمل على الصفحات من ١٢١ ب الى آخر الكتاب ، ولا توجد من الكتابين غير هذه النسخة ، وتنتهى بهذا التأريخ :

« انتهى النسخ فى أوائل محرم سنة ١٠١١ ، كتبها عبيد الله محمد بن محمد بن أبى القاسم بن عمر » .

ولم يتيسر لنا حتى الآن الاطلاع على هذه المخطوطة ودراسة هذين الكتابين ، ولكن الذى تذكره المراجيع أن الكتاب الأول « بر الوالدين » قد عالج فيه الطرطوشي موضوع عقوق الأبناء ، وأورد فيه من الآيات والأحاديث والحكم والأشعار ما يحث الأبناء على البر بالوالدين ، وأغلب الظن أن التجربة التي مر بها الطرطوشي مع ابن زوجته الذي كان يزمع قتله ـ والتي أشرنا اليها فيما سبق منا ـ كانت سببا من الأسباب التي دفعته الى تأليف هذا الكتاب .

وأغلب الظن كذالك أن الطرطوشى قد أحس بعد أن تزوج في الاسكندرية ، وبعد أن أنجب عاطفة الأبوة تطغى عليه وتملك عليه نفسه ، فألف هذا الكتاب ، وخاصة أن الرجل تزوج بعد أن تقدمت به السن ، أى بعد سن الأربعين وهي السن التي بلفها عند وصوله الاسكندرية ، والرجل أذا أنجب في سن متأخرة تكون عاطفة الأبوة عنده عادة قوية عارمة ، ومما يرجح استنتاجنا أن ياقوت أورد في ترجمته للطرطوشي بعض الشعر الذي قاله في هذا المعنى ، قال :

لو كان يدرى الابن اية غصــــة

يتجرع الأبوان عنسسل فراقه ؟!

أم تهيج بوجـــده حـــيرانة ،

وأب يسبح الدمع من آمــــاقه .

يتجــرعان لبينه غصص الردى ،

ويبوح ما كتماه من اشميهواقه .

لرثى لأم ســـل من أحشائها ؟ وبكى لشــيخ هــام فى آفاقه

ولبدل الخلق الأبي بعطف ،

وجزاهما بالعذب من أخسسلاقه

• وأغلب الظن _ مرة ثالثة _ أن هذا الشعر لم يكن الا تعبيرا عن عاطفته وشعوره هو ، فالشيخ الذي عناه بقوله: « وبكي لشيخ هام في آفاقه » لم يكن الا الطرطوشي نفسه .

١٠ والكتاب العاشر هو ((رسالة في تحريم جبن الروم)) :

وهذا الكتاب ألفه قطعا أثناء مقامه فى الاسكندرية ، وكان من الأسباب التى أثارت عليه القاضى ابن حديد والوزير الأفضل شاهنشاه _ كما بينا سالفا _ ، وهو من كتبه المفقودة .

11 _ والكتاب الحادى عشر هو ((كتاب الفتن)) ، ولعله تناول فيه الفتن التى سادت العالم الاسلامى في ذلك الوقت ، شرقه وغربه _ فقد كان العالم الاسلامى يجتاز حينذاك مرحلة تسودها الانقسامات والفتن في كل جزء من أجزائه ، وهو من كتبه المفقودة كذلك .

۱۲ _ والكتاب الثانى عشر هو ((كتاب تحريم الاستمناء)) . وتوجد منه نسخة خطية في مكتبة برلين تحت رقم ٤٩٨١ .

١٣ ـ والكتاب الثالث عشر هو ((كتاب نزهة الاخوان المتحابين في الله)) :

وتوجد منه نسخة خطية في مكتبة جوتا تحت رقم ٩٠٩ . ١٤ و ١٥ ــ وهذان الكتابان هما :

> « رسالة العدة عند الكرب والشدة » • و « حاشية على اثبات الواجب » •

وقد ذكرا في (فهرس مكتبة استانبول ، الجـــزء الأول) منسوبين الى الطرطوشي .

((کتاب الدعاء)) - ۱٦

١٧ _ « كتاب النهاية في فروع المالكية » .

١٨ _ ((كتاب نقائس الفنون)) .

وهذه الكتب الثلاثة انفرد بذكرها حاجى خليفة في « كشف الظنون » منسوبة الى الطرطوشي .

19 ـ ((اختصار كتاب أخلاق رسول الله)) ، والأصل لأبى محمد عبد الله بن جعفر بن حيان .

ذكره ابن خير في فهرسه ، قال :

« كتاب اخلاق رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ لابن حيان ، اختصار الشيخ الامام ابى بكر محمد بن الوليد الفهرى الطرطوشي _ رحمه الله .

حدثنی به القاضی أبو بكر العربی ـ رحمه الله ـ. قال:

أخبرنى به شيخنا الامام أبو بكر الطرطوشى ـ رحمه الله ـ به وبالأصل عن أبى بكر المفيد الحافظ المعروف بابن الخاصبة ، ولم يزد ابن العربى ـ رحمه الله ـ على هذا في سند الأصل .

وحدثنى بالأصل المذكور الشسيخ أبو الحسين عبد الملك بن محمد الصدفى ، قال : قرآت جميعه على الشيخ الامام أبى القاسم عبد الله بن طاهر التميمى ، حدثنا به عن أبى بكر أحمد بن الحارث القرىء ، عن أبى محمد عبد الله بن جعفر بن حيان ـ رحمه الله ـ ستة أجزاء » .

- . ٢ _ ((جزء فيه منتخب من عيون خصائص العباد)) .
 - ذكره ابن خير في فهرسه .
 - ٢١ _ ((ثلاثة أجزاء فيها الكلام في الغني والفقر)) •

ذكره ابن خير في فهرسه ، قال :

« ثلاثة أجزاء فيها الكلام في الفنى والفقر ، تولى جمعها الفقيه أبو بكر الطرطوشي ـ رحمه الله ـ حدثنى بها القاضى أبو بكر بن العربي ـ رحمه الله ـ » .

٢٢ _ ((رسالة أبي بكر الطرطوشي الى ابن تاشفين)) •

ذكرها ابن خير في فهرسه ، قال :

(رسالة الفقيه أبى بكر محمد الطرطوشى ـ رحمه الله ـ الى ابن تاشفين ، حدثنى بها القاضى أبو بكر محمد بن العربى ـ رحمه الله ـ قراءة عليه وأنا أسمع غير مرة ، قال : أخبرنى بها أبو بكر الطرطوشى ـ رحمه

وهى رسالة طويلة فى نحو عشر صفحات كتبها الطرطوشى الى أبى يعقوب بن تاشفين يوصيه بتقوى الله وطاعته ، واشاعة العدل بين رعاياه ، وحشد فيها الشواهد الكثيرة من الآيات القرآنيسة والأحاديث النبوية والأحداث التاريخية التى تتضمن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

والرسسالة _ لحسن الحظ _ موجسودة كلها في الحيزء الذي لم ينشر من مخطوطة « مفاخر البربر » (١) ، وهي الولف مجهول ، وقد أوصى الطرطوشي في ختام رسالته السلطان المرابطي

⁽۱) أشكر الصديق الدكتور أحمد مختار العبادى ، فقد تفضل وأطلعنى على صور شمسية من هذه المخطوطة ، وعنها نقلت نص هذه الرسالة التي سأنشرها ملحقة بكتابي هذا .

أبا يعقوب يوسف بن تاشفين بصديقه وتلميذه أبى بكر محمد ابن العربي خيرا ، قال :

« والفقيه أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربى ممن صحبنا أعواما يدارس العلم ويمارسه ، بلوناه وخبرناه ، وهو من جمع العلم ووعاه ، ثم تحقق به ورعاه ، وناظر فيه وجد حتى فاق اقرائه ونظراه ، ثم رحل الى العراق فناظر العلماء ، وصحب الفقهاء ، وجمع من مذاهب العلم عيونها ، وكتب من حديث رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ وروى صحيحه وثابته } والله تعالى يؤتى الحكمة من يشاء ، وهو (أى ابن العربى) وارد عليك بما يسرك ، فاشدد عليه يديك ، واحفظ فيه وفى أمثاله وصية الله سبحانه لنبيه عليه السلام ، أقال الله صبحانه _ وهو أجل القائلين :

« وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة » .

والحمد لله رب العالمين ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين ، واله الطيبين الطاهرين ، وسلم ، وشرف وكرم ، وأفضل وأنعم » (١) .

والشبه كبير بين النصائح التى ازجاها الطرطوشى للوزير الفاطمى الأفضل شاهنشاه والتى ضمنها كتابه « سراج الملوك » ، والنصائح التى أزجاها للسائلان الرابطى أبى يعقوب يوسف

⁽۱) وقد عقب مؤلف (مِفاخر البرير) على هذه الرسالة يقوله : « هكذا كانت سيرة العلماء مع الأمراء ، ومنذ عدم الناس أمثال هؤلاء العلماء أصابهم ما أصابهم » و:

ابن تاشفين فى رسالته اليه ، والطرطوشى فى نصائحه هذه وتلك هو هو لم يتفير ، يمثل عالم الدين الجرىء الذى يرى من واجبه أن يتقدم لولى الأمر _ مهما علت مكانته أو قوى سلطانه _ بالنصح أن يلتزم حدود الدين فى أوامره ونواهيه ، وأن يرعى الله فى رعيته ، وأن يفتح بابه لكل صاحب مظلمة ، وهذا طراز من العلماء نادر الوجود .

ملحق

نص رسالة أبى باكر الطرطوشي السلطان الرابطي أبى يعقوب يوسف بن تاشفين (والرسالة تنشر لأول مرة عن الجزء المخطوط الذي لم يطبع بعد من كتاب مفاخر البربر) .

وكتب (الطرطوشي) لي كتابا نسخته من أوله الى آخره : _

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن الوليد الطرطوشى الى الأمير أبى يعقدوب ابن تاشفين ، سلام عليك ، أما بعد ، فأنى أحمد الله اليك الذى لا أله الا هو ، وأشكره لديك كثيرا كما هو أهله ، وأخصك من مواعظه وحكمه ما أن أخذت به نجوت من عظيم ما ركبت أن شاء الله تعالى ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ، وحسبنا إلله ونعم الوكيل :

قال الله سبحانه: « يا داود انا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق » الى قوله « يوم الحساب » .

قال سلمان الفارسي _ رضي الله عنه:

« العلمون من الخليفة ؟ الخليفة هو الذي يقضى بكتاب الله ، ويشفق على الرعية شفقة الرجل على اهله » .

واقال سبحانه وتعالى : « الذين ان مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر » .

فمن مكنه الله فى الأرض ، وأتاه الله سلطانا ولم يفعل ما أمر الله تعالى به فى هذه الآية ، خفنا أن لا يكون من أهلها ، لأن الله تعالى وصف هذه الأمة ـ اذا فتح الله تعالى عليهم الأرض ، وأهلك عدوهم ـ باقامة الصلاة وأيتاء الزكاة وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

« ما من أحد يلى عملا أو نال سلطانا الا اهتز به الصراط حين يركبه حتى يزول كل عظيم عن حقه ، فان كان محسنا نجا ، وان كان مسيئا هوى سبعين خويفا » .

فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب _ رضى الله عنه _ قال : « ومن يرغب في العمل بعد هذا ؟ » قال له أبو ذر _ رضى الله عنه _ : « من سلب الله أنفه 6 وأصعر خده » .

وروى أن رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ قال: « ما من وال يلى رعية من المسلمين فيموت وهو غاش لهم الا حرم الله تعالى عليه الجنة » .

وروى أن رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ قال للعباس عمه لما قال له: «أمرنى على أمارة » ، فقال له رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ : « يا عباس يا عم رسول الله ، نفس تحييها (١٣٤) خير من أمارة لا تحصيها ، أن الامارة حسرة وندامة يوم القيامة ، فأن استطعت أن لا تكون أميرا فافعل » .

وروى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: « ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، والرجل راع على أهل بيته ومسئول عن رعيته ، والمراة راعية على أهل بيت زوجها وولدها وهي مسئولة عنهم ، وعبد الرجل راع على مال سيده وهو مسئول عنه ، ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » .

ولقد بلغ هذا من نفوس الصحابة والخلفاء الراشدين والأئمة المهتدين مبلفا ذهلت له عقولهم ، وطاشت حلومهم ، فروى أن عمر ابن الخطاب _ رضى الله عنه _ مر بطريق مكة ، فأبصر راعيا يرعى بمكان جدب ، فناذاه : أيا راع ، قد رأيت مكانا هو أخصب من مكانك فالحق به ، ثم قال : « كل راع مسئول عن رعيته » .

وقال على : « رأيت عمر بن الخطأب يعدو على قتب ، فقلت : « الى أين ؟ » فقال : « بعير من ابل الصدقة قد ند وانا اطلبه » فقلت :

« أذللت الخلفاء بعدك يا أمير المؤمنين » فقسال: « لا تلمنى يا أبا الحسن ، فوالذي بعث محمدا بالنبوة لو أن نحلة ذهبت بشاطىء الفرات لأجدن بها حسرة يوم القيامة الا انه لا حرمة لوال ضيع المسلمين » .

يا أبا يعقوب ، لقد بليت بأمر لو حملته السماوات لانفطرت ، ولو حملته الأرض والجبال لتزلزلت وتدكدكت ، انك حملت الأمانة التي عرضت على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها واشفقن منها ؛ فروى أن آدم صلوات الله عليه ، كما استخلفه الله تعالى في الأرض على ذريته ، وما فيها من الأنعام ، وعهد اليه عهودا أمره فيها ونهاه ، فقام فيها بأمر الله سبحانه الى أن حضرته الوفاة ، فسأل الله _ سبحانه _ أن يعلمه من يستخلفه ويقلده من الأمانة ما قلده (١) ، فأمر أن يعرض ذلك على السماوات بالشرط الذى أخذ عليه من الثواب أن أطاع ، ومن العقاب أن عصى ، فأبين أن يقبلنه شفقا من عقابه ، ثم أمره أن يعرضه على العبال والأرض فأبينها أيضا ، ثم أمره أن يعرضه على ولده فقبله ولده ، على شرط أن له الثواب أن أطاع والعقاب أن عصى ، فوبخه الله تعالى على مسارعته ألى أقبول ذلك ، فقال : وحملها الانسان أنه كأن ظلوما لنفسه ، جهولا بعقابه وما تقلد لربه ، وكان الفرض تخييرا لا أيجابا .

ودوى أن عمر بن عبد العزيز لما أفضت اليه الخلافة ، سمعوا في منزله بكاء عاليا فسئل عن البكاء ، فقيل : أن عمر خير جواريه ، وقال : « قد نزل بى أمر شفلنى عنكن ، فمن أحبت أن أعتقها ، أعتقها ، ومن أحبت أن أمسكها لم يكن لها نصيب منى » قال : فبكين يأسا منه ، ثم دعا أفاضل المسلمين في زمانه وعلمائهم في وقته : سالم بن عبد الله ، ومحمد بن كعب ، ورجاء بن حيوة ، فقال

⁽١) الأصل : خلده ه

لهم : « انى قد ابتليت بهذا الأمر ، فأشيروا على بها » . فعد الخلافة بلاء ، وأنت ونظراؤك تعدون هذا البلاء نعمة .

فقال له سالم بن عبد الله : « يا أمير المؤمنين ، ان أردت النجاة من عذابها (١٣٥) فصم عن الدنيا ، وليكن افطارك فيها الموت » .

وقال محمد بن كعب : « ان أددت النجاة من عذاب ألله ، فليكن كبير المسلمين لك أبا ، وأوسطهم عندك أخا وأصغرهم ولدك ، فوقر أباك وارحم أخاك ، وتحنن على ولدك » .

وقال له رجاء بن حيوة : « أن أردت النجاة من عذاب الله غدا ، فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك ، وأكره لهم ما تكره لنفسك ، ثم مت متى شئت » .

وانى لأخاف عليك أشد الخوف ، فاتق الله يا أبا يعقوب في أمة محمد حصلى الله عليه وسلم ح ، فان لك مع الله تعالى موقفا يسائلك فيه عنهم شخصا شخصا ، ذكرا وأنثى ، صغيرا وكبيرا ، حرا وعبدا ، ومسلما وذميا ، فأعد لذلك المقام كلاما ، ولذلك السؤال جوابا ، فالذى نفسى بيده أن ذلك لحق مثل ما أنكم تنطقون .

روى عبد الله بن عمر أن رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ قال : « ما منكم أحد الا ويخلو بربه ، ليس بينه وبينه ترجمان ، ولا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن خمسة : عن عمره فيما أفناه ؟ وعن شبابه فيما أبلاه ؟ وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ؟ وماذا عمل فيما علم » .

واعلم يا أبا يعقوب: فانه لا يزنى فرج فى ولايتك ومدى سلطانك وطول عمرك ، ألا كنت المسئول عنه والمرتهن بجريرته ، وكذلك لا يشرب فيها نقطة مسكر الا وانت المسئول عنها ، ولا ينتهك فيها عرض امرىء مسلم ، الا وانت المطالب به ، ولا يتعامل فيها بالربا الا وانت المأخوذ به ، وكذلك سائر المظالم ؛ وكل حرمة انتهكت من حرمات الله تعالى ، فعهدتها عليك ، لأنك قادر على تفييرها ، فأما ما خفى من ذلك ولم يكن ظاهرا يراه المسلمون فأنت المبرأ منه ان شاء الله تعالى .

ألا ترى الى عمر بن الخطاب كيف اشفق أن يطالبه الله ببعير من ابل الصدقة ، وانما هو البعير للمسلمين ، فركب على بعيره وجعل يطلب بنفسه ، ولا عدر لك عند الله تعالى أن تقول لم يبلغنى ، فانك اذا احتجبت عن المسلمين فكيف تعلمه وتراه ؟

قال الله تعالى : « كانوا لا يتناهبون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » ، من تركهم الانكار وانما قاله لقوم سخط عليهم ، هذا بين الأكفاء والنظراء ، فما ظنك بين الولاة والأمراء .

قال الله سبحانه: « يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ، ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا » .

جاء في التفسير ، الصغيرة : التبسم ، والكبيرة : الضحك .

ولقد بلغنى أن عبد الله العمرى لما حج لقى هارون الرشيد في الطواف ، فقال : « يا هارون » ، فنظر اليه الرشيد فعرفه ، فقال : « لبيك يا عماه » ، فقال : « كم ترى ها هنا من خلق ؟ » قال : « لا يحصيهم الا الله تعالى » . قال : « فاعلم أيها الرجل أن كل واحد منهم يسأل عن خاصة نفسه ، وانت وحدك تسأل عنهم كلهم ، فانظر كيف تكون ؟ » .

فبكى هارون الرشيد بكاء شديدا ، فجعلوا يعطونه منسديلا يمسىح به دموعه ، قال له : « والله يا هارون ان الرجل ليسرع (١) في مال نفسه فيستحق الحجر عليه ، فكيف بمن يسرع (١) في مال المسلمين ؟ » .

ولما دخل طاوس اليماني على سليمان بن عبد الملك قال :

« یا أمیر المؤمنین ، هل تدری من أشـــد الناس عذابا يوم القيامة ؟ » .

قال سليمان : « قل » .

⁽١) كذا في الأصل ، ولعلها « ليسرف » .

فقال : « أشد الناس عذابا يوم القيامة من أشركه الله في ملكه ، فجار في حكمه » .

فاستلقى سليمان بن عبد اللك على سريره (١٣٦) باكيا ، فما زال باكيا حتى قام عنه جلساؤه .

وقال أبو بكر الصديق ــ رضي الله عنه :

« أن الملك أذا ملك زهده ألله في ماله ، ورغبه في مال غيره ، وأشرف فعله الاشفاق من الفقر ، فهو يسخط على القليل ويحسد على الكثير ، حتى أذا قضى الله نحبه ، حاسبه بأشد حسابه ، وأقل عفوه » .

فاحدر يا أبا يعقوب أن ترد على جنة عرضها السموات والأرض ، فلا يكون لك فيها موقف قدم ، أعاذنا الله وأياك من هذا الموقف .

ولقد بلغني يا أبا يعقوب انك احتجبت عن المسلمين بالحجارة والطين ، واتخلت دونهم حجابا ، وأن طالب الحاجة ليظل يومه ببابك فما يلقاك ، كأنك لم تسمع قول الله عز وجل : « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى في الأسواق » ، قال الحسن : « لا والله ، ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم تفلق دونه الحجب ، ولا يفدى عليه بالجفان ، ولا يراح عليه بها ، ولكنه كان بارزا ، من أراد أن يلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقيه ، وكان يجلس بالأرض ، ويوضع طعامه في الأرض ، ويلبس الفليظ ، ويركب الحمار ، ويردف عليه عبده ، ويلعق أصابعه ، وكان يقول : « من الحمار ، ويردف عليه عبده ، ويلعق أصابعه ، وكان يقول : « من رغب عن سنتى فليس منى » ، قال الحسن : « فما أكثر الراغبين عن سنته التاركين لها » .

وكان عمر بن الخطاب _ رضى الله عنه _ يأخذ درته ، ويمشى في الأسواق ، ويتفقد أمر رعيته ، وكان يمشى ليلا في سكك الدينة مع عبد الرحمن بن عوف وغيره من الصحابة _ رضى الله عنهم _ ، يحفظون عورات المسلمين ، إفروى عنه أنه استعمل سعد بن أبى

وقاص على الكوفة ، فبلغه أن سعدا اتخذ قصرا وجعل عليه بابا ، وقال انقطع التصويت ، فأرسل اليه محمد بن مسلمة ، وقال : « ابت سعدا فأحرق عليه بابه » . فأتى الكوفة وأخرج زنده ، واستورى ناره ، ثم أحرق الباب ، فجعل سعد يعتذر ويحلف بالله ما قال ، فقال له محمد بن مسلمة : « تفعل ما أمرتك به وتورى عنك القول » .

يا أبا يعقوب: ولقد بلغنى انك استأثرت على المسلمين بالحظ الوافر من حطام الدنيا وزخرفها ، فلبست الناعم ، وأكلت اللين ، وتمتعت بلذاتها وشهواتها ، كأنك لم تسمع قول الله عز وجل: « أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها » ، أولم تسمعه سبحانه يقول لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه » .

ولقد روت عائشة _ رضى الله عنها _ قالت : « لقد كان يمر علينا الشهران والثلاثة ما توقد في بيوت رسول الله _ صلى الله عليه وسلم منار » . قيل : « فما كان عيشكم ؟ » قالت : « الأسودان : التمر والماء » .

ولقد روى أن فاطمة _ رضى الله عنها _ قالت : « خبزت رغيفا من شعير ، فجئت منه بكسرة الى رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ ، فقال : « ما هذا يا فاطمة ؟ » فقلت : « رغيف خبزته يا رسول الله ، ولم تطلب نفسى أن آكله حتى أجيئك بهذه الكسرة » . فقال : « أما أنه أول طعام دخل جوف أبيك منذ ثلاثة أيام » .

هذا لو شركوك فى خفض العيش لنهيت عنه ، لأن الله تعالى أخصد على الأئمة مشصل ما روى عن يوسف صلى الله عليه وسلم صلى الله عليه وسلم صلى الله كان يأكل الشعير ويطعم عياله الخشكار ، ويطعم المسلمين الحوارى ، وكان يجوع نفسه ، فقيل له : « اتجوع وبيدك خزائن الأرض ؟ » فقصال : « أخاف أن أشسم فأنسى الجائعين » .

وروى أن عمر بن الخطاب _ رضى الله عنه _ ، لما أفضت اليه الخلافة قال : « أنى أنزلت نفسى فى مال الله سلمانه بمنزلة ولى اليتيام ، أن استغنيت استعففت ، وأن افتقارت أكلت بالمعروف » .

وروى عنه أنه قال « أخبركم بما يحل لى من مال الله سبحانه ، استحل منه حلتى : حلة الشتاء وحلة القيظ ، وما أحج عليه وأعتمر ، وقوتى وقوت عيالى كقوت رجل من قريش لا من أغنيائهم ولا من فقرائهم ، ثم أنا بعد رجل من المسلمين يصيبنى ما أصابهم » . فكيف والفقراء ببابك يتضاغون ، وذوو الحاجات يترددون وأهل الديون والفرم في السجون محبوسون ماسورون ، وأموال المسلمين تحت يدك وفي قبضتك ؟ أما سمعت أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم _ قال : « من ترك مالا فلورثته ، ومن ترك كلا فعلينا » ، أما سمعت قول الله تعالى : « انما الصدقات للفقراء والمساكين » . .

يا أبا يعقوب ، انه قد كبرت السن ، وانحلت القوى ، واشتعل الرأس شيبا ، وارتحلت الدنيا مدبرة ، وجاءت الآخرة مقبلة ، وحان الفراق ، والتغت الساق بالساق ، وجاءت سكرة الموت بالحق ، فالبدار البدار الى حياة لا موت فيها وشباب لا هرم معه ، وصحة لا سقم فيها . قال الله تعالى : « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون » . . الى قوله : « من فضله » .

يروى عن ابن عباس أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « لما أصيب أخوانكم يوم أحد ، جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها ، وتسرح من الجنة حيث شاءت ، وتأوى إلى قناديل من ذهب تحت العرش فلما رأوا طيب مقيلهم ومطعمهم ومشربهم ، ورأوا ما أعد الله لهم من الكرامة ، قالوا: « يا ليت قومنا يعلمون بما نحن فيه من النعم ، وما صنع الله بنا ، كى يرغبوا فى الجهاد ولا ينكلوا عنه » . فقال الله تعالى : أنا مخبر عنكم ومبلغ اخوانكم ، ففرحوا بدلك واستبشروا ، فأنزل الله تعالى : « ولا تحسبن الذين قتللوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء » . . الآية ، وقال – جل من قائل – « أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » الى قوله : « الفوز العظيم » . فما ظنك بتجارة ، الله مشتريها يوشسك والله أن لا تبور .

وقال جل من قائل: «يا أيها الذين آمنوا هل ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ؟ » فلو قطع هنا ، لانقطعت الأعيان في البحث عن هذه التجارة ، لأن الله بفضله وكرمه بين مراده من ذلك فقال : « تؤمنون بالله ورسوله » الى قوله « ان كنتم تعلمون » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم لا يفتر من صلاة ولا صيام حتى يرجع » .

وروى أن رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ قال: « تكفل الله لمن جاهد في سبيل الله ، لا يخرجه من بيته الا الجهاد في سبيل الله وتصديق (١٣٨) كلمته ، أن يدخله الله الجنة أو يرده الى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر أو غنيمة » .

وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لولا أن أشق على أمتى لأحببت أن أتخلف عن سرية تخرج في سبيل الله ، ولكنى لا أجد ما أحملهم عليه ، ويشق عليهم أن يتخلفوا بعدى ، والذى نفسى بيده لوددت أن أقاتل في سبيل الله فأقتل ، ثم أحيا فأقتل ، والذى نفسى بيده ، لا يكلم أحد في سبيل الله ، والله أعلم بمن يكلم في سبيله ، الا جاء يوم القيامة وجرحه يشغب دما ، اللون لون الدم ، والريح ريح المسك » .

واقال أنس بن مالك: « استشهد عمى يوم أحد ، وكان قد غاب عن بدر ، فقال: « يا رسول الله ، ان الله اشهدنى قتال المشركين ليرينى ما أصنع » ، فلما كان يوم أحد ، قال: انى لأجد ريح الجنة

من دون احد ، قال فما استطعت يا رسول الله ما اصنع ، فوجدنا بضعا وثمانين ضربة بالسيف ، أو طعنة بالرمح ، أو رمية بالسيف ، ومثل به المشركون ، فنزل فيه وفي أمثاله من المؤمنين : « رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من نتظر وما بدلوا تبديلا » .

واعلم يا أبا يعقوب أن الله تعالى فرض الجهاد على كافة المسلمين ، ولا يرده جور جائر ، ولا فسق فاسق الى أن تقوم الساعة .

قال الله تعالى: « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليسوم الآخر » ، الى اقوله « صاغرون » . فلم يرخص لهذه الأمة فى ترك جهاد عدوهم الا باعطاء الجزية أو كلمة الاسلام . وهذه الآية نسخت كل آية فى كتاب الله تعالى تتضمن الاعراض عن المشركين .

وروى أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - ، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ما ترك قوم الجهاد الا عمهم العذاب » ، فجهاد الكفار فرض عليك فيما يليك من ثفور بلاد الاندلس ، لأنك أقرب الملوك اليها ، وعندك الكراع والسلاح ولأمة الحرب وآلتها ، وجيوش المسلمين وحماة البيضة طائعون لك ، وكذلك كل من بنواحيك وجنبات أعمالك من المجاهدين والمقاتلين أولى البطش والقوة ، وأنت في حرج من تضييع من في ثفور أرض الاندلس من جماعة المسلمين والحرم والدرارى ، أفلا تأسيت بمن سافر اليها ، واقصى المضى من ارض الحجاز من حماة المسلمين ومجاهديهم حتى استفتحوها ، وبثوا فيها كلمة الاسلام وشهادة التوحيد ؟ فكيف بمن يناسخها ويجاورها ؟ .

یا آبا یعقوب: اذا آردت الظفر بالعدو فعلیك بالعدل فی الرعیة ، فقد روی عن عمر بن الخطاب ـ رضی الله عنه ـ أن وفدا من الوفود قدم علیه بالفتوح ، فقال له عمر : « متى لقیتم عدوكم ؟ » فقال : « من أول النهار » ، قال : « فمتى انهزموا ؟ » فقال : « من آخر

النهار » . فقال عمر : « انا لله وانا اليه راجعون ، وقام الشرك للايمان من أول النهار حتى اعتدل النهار ، والله ان كان هذا الا عن ذنب أحدثتموه بعدى أو أحدثته بعدكم ، ولقد استعملت بعلى ابن أمية على اليمن ، أستنصر لكم بصلاحه » .

وكتب أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ الى جنده بالشام ولما يؤتى العشرة الآلاف (١٣٩) وأكثر اذا أتوا من تلقاء الذنوب فاحترسوا من الذنوب .

ومما أتحفك به ، وهو خير لك من طلاع الأرض ذهبا لو انفقته في سبيل الله ، حديث رواه الأئمة الثقات عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فروى مسلم في كتابه الصحيح ، نقل العدل عن العدل عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنه إقال : « لا تزال طائفة من أهل المفرب ظاهرين على الحق حتى يأتى أمر الله » . والله أعلم هل أرادكم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – معشر المرابطين ، أو أراد بذلك جملة أهل المغرب وما هم عليه من التمسك بالسنة والجماعة ، وطهارتهم من البدع والأحداث في الدين ، والاقتفاء لآثار من السلف الصالح رضى الله عنهم ، وأنا لنرجو أن تكونوا أولى بقية ينهون عن الفساد في الأرض ؛ ولقد كنا في الأرض المقدسة بقية ينهون عن الفساد في الأرض ؛ ولقد كنا في الأرض المقدسة فريضة الله تعالى في جهاد عدوه واعزاز دينه وكلمته ، وكان من فريضة الله تعالى يدعون الله سبحانه في نصرك وتأييدك والفتح على الى الله تعالى يدعون الله سبحانه في نصرك وتأييدك والفتح على يديك .

فلئن كنت تستنصر بجنود أهل الأرض ، لقد كنا نستنصر لك بجنود أهل السماء ، حتى قدم علينا الأرض المقدسة الفقيه أبو محمد عبد الله ، عبد الله بن العربى وابنه الفقيه الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله ، فذكرا من سيرتك في جهاد العدو _ أهلكه الله تعالى _ في تلك الأندية والمحافل والحلق والمجالس ، وصبرك على مكافحة العدو

ومصابرته ، واعزازك للدين وأهله ، والعلم وحملته ، ما زاد المسلمين بصيرة في الدعاء لك وحسن الاعتقاد فيك ، حتى تمنينا أن نجاهد الكفار معك ، ونكثر سواد المسلمين في جملتك .

نسأل الله تعالى الذى يهب الجزيل من فضله أن يهبنا واياك الشهادة في سبيله ثم اليه سبحانه نضرع أن يريك الحق حقا فتتبعه ، والباطل باطلا فتجتنبه ، فصلاح الرعية بصلاح الراعى .

فتتبعه ، والباطل باطلا فتحتنبه ، فصلاح الرعية بصلاح الراعى . والفقيه أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربى ممن صحبنا اعواما يدارس العلم ويمارسه ، بلوناه وخبرناه ، وهو ممن جمع العلم ورعاه ، ثم تحقق به ورعاه ، وناظر فيه وجد حتى فاق أقرانه ونظراه ، ثم رحل الى العراق ، فناظر العلماء ، وصحب الفقهاء ، وجمع من مذاهب العلم عيونها وكتب من حديث رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ وروى صحيحه وثابته ، والله تعالى يؤتى الحكمة من يشاء ، وهو وارد عليك بما يسرك ، فاشدد عليه يديك ، واحفظ فيه وفي أمثاله وصية الله سبحانه لنبيه عليه السلام ، قال الله سبحانه وهو أجل القائلين : « واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم ، كتب ربكم على نفسه الرحمة ، والحمد لله رب العالمين » .

والسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين ، وآله الطيبين الطاهرين ، وسلم ، وشرف وكرم ، وأفضل وأنعم .

(١٤٠) هكذا كانت سيرة العلماء مع الأمراء ، ومنذ عدم الناس أمثال هؤلاء العلماء أصابهم ما أصابهم .

مراجع الكتاب

(أ) الراجع العربية

ادهم (علی)

بعض مؤرخي الاسلام ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

ابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك)

كتاب الصلة ، جزءان ، القاهرة ، ١٩٥٥ .

ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف)

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ظهر منه حتى الآن ١٢ جزءا ، طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ، ١٩٢٩ – ١٩٥٦ م ،

التنبكتي (أحمد بابا)

نيل الابتهاج بتطريز الديباج (على هامش الديباج المذهب لابن فرحون) ، القاهرة ، ١٣٥١ هـ .

ابن الحاج (أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري)

كتاب المدخل الى تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبيه على بعض البدع والعوائد التى انتحلت وبيان شناعتها وقبحها ، ٣ اجزاء ، اسكندرية ١٩٣٤ م .

حاجى خليفة (مصطفى بن عبد الله ، السمى كاتب چلبى)

كشيف الظنون عن اسامي الكتب والغنون .

الحمسيري

صفة جسزيرة الأندلس (عن كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار ، نشر ليڤي بروڤنسال) ، القاهرة ١٩٣٧ م .

ابن خلدون (عبد الرحمن)

المقدمة ، القاهرة ، ١٣٢٢ هـ .

ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ٦ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٤٩م ٠

ابن خير (ابو بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة الأموى الأشبيلى) فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وانواع المعارف ، جزءان ، سرقسطة ١٨٩١ ـ ١٨٩٥ م (وهو المجلد التاسع من المكتبة الاندلسية العربية) ، نشر : فرنسشكه قداره وخليان رباره طرغوه .

Index librorum de Diversis Scientiarum Ordinibus Zuos a magistris didicit (Abu Bequer Ben Khair: Franciscus Codera et J. Rebera Tarrago).

الزبيدي (السيد محمد مرتضي)

اتحاف السادة المتقين بشرح أسرار احيساء علوم الدين ، 1 اجزاء ، القاهرة ١٣١١ هـ .

الزركلي (خير الدين)

الأعلام ، الطبعة الثانية ، ١٠ أجزاء ، القاهرة ١٩٥٤ ــ ١٩٥٩ م .

السبكى (تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن تقى الدين)

طبقات الشافعية الكبرى ، ٦ أجزاء ، القاهرة ١٣٢٤ ه. .

سركيس (يوسف اليان)

معجم المطبوعات العربية والمعربة ، القاهرة ١٣٤٦ (١٩٢٨) .

السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن)

بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، القاهرة ١٩١٠ م . حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، ١٣٢٧ هـ .

أبو شامة (شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل)

الباعث على انكار البدع والحوادث ، نشر محمد فؤاد منقارة الطرابلسي ، القاهرة ١٩٥٥ م .

الروضتين في أخبار الدولتين ، جزءان ، القاهرة ١٢٨٧ هـ . الذيل على الروضتين ، القاهرة ١٩٤٧ م .

الشيال (جمال الدين)

أعلام الاسكندرية في العصر الاسلامي ، القاهرة ١٩٦٥ م . تاريخ مدينة الاسكندرية في العصر الاسللمي ، اسكندرية ١٩٦٧ م .

تاريخ مصر الاسلامية ، جزءان ، اسكندرية ١٩٦٧ م .

الشيرزي (عبد الرحمن بن نصر)

المنهج المسلوك في سياسة الملوك .

الصفدى (صلاح الدين خليل بن أيبك)

الوافى بالوفييات ، طبع منه أربعة أجزاء باشراف جمعية المستشرقين الألمان ، ١٩٤٩ م .

الضبي

بغية الملتمس في تاريخ رجال أهــل الأندلس ، مجريط ١٨٨٤ م .

ابن طباطبا (محمد بن على ، المعروف بابن الطقطقي)

الفخرى في الآداب السلطانية والدول الاسلامية ، القــاهرة ١٩٢٣ م ٠

الطرطوشي (أبو بكر محمد بن محمد)

الحوادث والبدع ، نشر محمد الطالبي ، تونس ١٩٥٩ م . سراج الملوك ، القاهرة ١٩٣٥ م .

مختصر الكشف والبيان في تفسير القرران (مخطوط بدار الكتب المصرية) .

ابن عناري (أبو المباس أحمد)

البيان المفرب في اخبار المغرب ، تحقيق ليڤي بروڤنسال وكولان ، جزءان ، ليدن ١٩٤٨ – ١٩٥١ ، والجزء الثالث ، باريس ١٩٣٠ م .

عياض (القاضي)

المدارك

الفزالي (أبو حامد محمد بن محمد بن محمد)،

احياء علوم الدين ، القاهرة ، ١٣١٦ ه. .

التبر المسبوك في نصيحة الملوك ، القاهرة ١٣١٧ ه. . المنقد من الضلال ، القاهرة .

ابن فرحون (برهان الدين ابراهيم بن على بن محمد)

الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ، القـــاهرة

ابن الفرضي

تاريخ العلماء ، القاهرة ١٩٥٤ م .

المالكي (أبو بكر عبد الله بن أبي عبد الله)

رياض النفوس ، نشر حسين مؤنس ، الجسوء الأول ، القاهرة ١٩٥١ م .

مبارك (على)

الخطط التوفيقية الجديدة ، ٢٠ جزءا ، بولاق ١٣٠٤ - ١٣٠٦ ه. .

القرى (أحمد بن محمد التلمساني)

نفـــ الطيب من غصن الأنداس الرطيب ، طبعة محمــد محيى الدين عبد الحميد ، ١٠ أجزاء ، القاهرة ١٩٤٩ م ٠

المفريزي (تقي الدين أحمد بن على)

اتعاظ الحنف الذكر الأئم قالفاطميين الخلفا (مخطوطة استانبول) .

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، } أجزاء ، مطبعة النيل بالقاهرة ١٣٢٦ – ١٣٢٦ هـ .

المنذرى (زكى الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوى ابن عبد الله)

التكملة لو فيات النقلة (مخطوطة مكتبة البلدية بالاسكندرية) .

ابن موسى (أبو اسحق ابراهيم اللخمي الشاطبي)

كتاب الاعتصام ، نشر محمد رشيد رضا ، ٣ أجزاء ، القاهرة ١٣٣١ هـ (١٩١٣ م) .

ابن وضاح القرطبي (أبو عبد الله محمد)

كتاب البدع والنهى عنها ، نشر محمد أحمد دهمان ، دمشق ١٩٤٩ هـ (١٩٢٨ م) .

ياقوت (أبو عبد الله بن عبد الله ، الحموى)

معجم الأدباء ، طبعة محمد فريد رفاعي ، ٢٠ جزءا ، القاهرة

معجم البلدان ، نشر فستنفلد ، ليبزج ١٨٦٦ - ١٨٧١ م ،

and the second of the second o

in the second se

. . .

e de maria

ب ـ الراجع الأجنبية

Alarcon (M.)

= Lampara de los Principos por Abubequer de Tortosa (trad. Espan.), Madrid 1930 - 1931

Asin (M.)

Un Faquih Siciliano Contradictor de Algazbli
 (Centenario della Nascita de Michele Amari.
 Estratto. Palermo 1910).

Ben Cheneb (M.)

= Etudes sur les Personnages Mentionnés dans L'Idjaza du Cheikh 'Abd al-Qadir el Fasy, Paris 1907.

Boigues (Paus)

= Historiadores y géografos arabigo-espanoles.

Brockelmann (Carl)

= Geschiehte der Arabischer Litteratur (V.I), Supplementband (I).

Dazy (R.)

= Recherches sur l'histoire et la Littérature de l'Espagne durant le moyen-âge, Paris, Leiden 1881, II.

Gayangos

= History of Muhamedan Dynasty in Spain, London 1840-43.

Palacios (Asin)

= el Islam cristianizado 184, No I vgl. Z. D.

P. v. XVII, 16

Palancia (Gonzalez)

= Historia de la literatura arabigo-espanola, Barcelona 1928.

Quatremére (Et.)

= J. A. (S, t 17. pp. 147-54).

Robles (Guillén)

= Catalogo de los Manuscritos àrabes existentes en la Biblioteca Nacional de Madrid S. « Tortuxi ».

الفهرث

**	
٩	صفح

البساب الأول

نشأته الأولى وأسرته

٦	•	•	•	الباجى	الوليد	أبى	علی	الأولى	دراسته	(1)

البساب الثاني

الطرطوشي في المشرق

١٤	• 1	•	٠	•	•	•	•	٠	•	•	•	ل مكة	ġ (1)
10	•	•	•		•	•	•	•	•	د	بدا	في بفـــ	(ب)
10	•	•	اد.	بغد	ية في	لنظام	سة ا	المدر	ئی و	ر طو ث	الط	_ 1	
۱۸	•	٠	•	٠	اد	, بغ <i>د</i>	ئى فى	رطونا	ة الط	_ات ذ	أسد	_ ٢	
۲۱	داد	نی بغا	كان إ	ىند	ِ ف	لتصو	الی ا	شی	طرطو	اه ال	أتج	۳ -	
44	٠	•	•	•	•	•	•	•	٠		1م	في الشيا	(ج)
44	•	٠	•	٠	_ان	لبنـ	جبل	س و	المقد	بيت	فی ا	_ 1	
۳۱	•	•	•	•	•	•	٠	•.	ئية	أنطاك	في	۲ ــ	

البساب الثالث

الطرطوشي في مصر

۲۳	٠	٠	•	٠	٠ -	لمفرب	اب ا	- وب	الرباط	دريه	الاسكنا	_	1
49	٠	٠	٠	•	•	•	•	أولا	سيد	نة رش	فی مدین		٢
	ىية	سياس	ىنة ،	_ مح	بة أثر	ئندر	الأسك	لی ا	بصل ا	شي	الطرطو	_	٣
٤١	•	٠	٠	•	•	•	• '	•	•	•	علميــة		
٤٨	•	اه .	فنشد	شاه	سل	الأ فض	رير ا	للوز	طو شي	الطر	موعظة		ξ
٥٠											الطرطو		
	سد	الره	تأمع	في ج	ر شی	طر طو	بة ١٦٤		د اقا	، يحا	الأفضل	_	٦
00	٠	٠	٠	•	•	٠	•	•	•	اط	بالفسط		
٥٧	٠	٠	•	حي	بطائه	ِن اا		المأم	الوزير	شی و	الطرطو	nam*	٧
		•			اده	ع ال	ساب	الـــ					
					وشي	طرط	بذ ال	تلام	•				
77	•	•	£ 1 - 1	•	1	•	• * .	`. •	٠	. 2	ـــدما	تقــ	_
٦٣	٠	•	•	•	• ,	• *	•	•	ښان	بن ء	سئد	·	١
70		:	•	•	٠	٠	•	ۣف	ن عــو	اهر ب	أبو الطا	i _	۲
۸۲	•		•	•	* 1		•	·.·	العربي	بن	بو بكر	1	٣
											لهدى		

4 -	-0.0
_	

٧٤

البـــاب الخامس مؤلفات أبي بكر الطرطوشي

						ق	ملح					
	طی	لمراب	ان ا	_لط	السـ	الى ا	نی	ئرطو ^ش	الط	أبى بكر	رسالة	نص
111	٠	• ,	٠	•	•	٠	بن.	تاشف	بن	بو سف	بعقوب	أبى
	مراجع الكتب											
140	•	٠	•	•	•,	•	•	•	•	العربية	المراجع	(1)
								ä.,	اام		11 100	(ب)

صدر من سلسلة أعلام العرب

الولف		اسم الكتاب	. *
عباس العقاد		مبده ۰۰۰	ا _ محمد
على أدهم		د بن عباد	۲ _ المتما
		بن حيان	۲ نے جابر
د ، على عبد الواحد وافي		د الرحمن بن	
د . محمد يوسف موسى		ىمىسة …	
ابراهيم الابياري	•• ••• •••	ــاوية	٦ _ مـــ
٠ د . محمد أحمد الحقني		يد درويش	v
٠ د ٠ أحمد بدوي	نی	القاهر الجرجا	۸ _ عبد
د ، على الحديدي		الله النديم	۹ ساعبد
د . ضياء الدين الريس	ان … ا	. الملك بن مرو	١٠ ـ ميد
أمين الخولي		હા	١١ _ ماك
الطيف حمزه الطيف حمزه		شــندی ۰۰۰	
" د . أحمد محمد الحوني		رى	
·· د . سعيد عبد الفتاح عاشور		اهر بيبرس	١٤ _ الظ
۰۰ د . محمد مصطفی حلمی		الفارض	١٥ _ ابن
د ، على حسنى الخربوطلي		نار الثقفي	١٦ _ المخا
· د . سيدة اسماعيل الكاشف ·	था।	ليد بن عبد	١٧ ــ الول
" د . احمد کمال زکی	• ••• • •••	٠٠٠ روم	- IX
" صبرى ابو المجد		يا أحمــد …	
۰۰۰۰ د . ماهر حسن قهمی		ـم أمين …	
" أحمد الشرباسي		يب أرسلان	
··· د . عبد الحميد سند الجندو		ى تتببة …	
محمد عجاج الخطيب		هريرة …	۲۳ _ ابو

الولك			لكتاب	اسم ا	
فوزى النجار	د ، حسین			قاعه الطها	
احمد الحفني	د ، محبود	*** * ***	•••		
أحمد محمود	د . حسن		ۇرخ ۽ …		
ابراهيم	د . زکریا		تدلسي …		
غليونجى	د ، بول				
عبد الفتاح عاشوو	د . سعید		ـ البدوى		
مصطفى هدارة	د ، محمد				
الفني حسن	محمد عبد		(
ن الراقعي	عبد الرحم		، الأنفسائي		
کمال زکی	د ، احمد				
عبد العلهم	. د • انور		4	این ماجب	- 75
حسن قهمى	د ، ماهر		يق البكرى		
محمد الخديدي	د ، ملی		ى البارودى		
مظيم	على عبد أأ				
لفزيز محمد الشناوي	د . عبد ا		··· r.		
يم أحمد العدوى		•••	-۱ صبر	عمار مار	- 17
الحليم محمود		•••	سير ، الشاذلي	موسی بن ، ۱ ۱۱ -	- 17
اسماعيل كاشف					
ن فوزى النجار			پن مروان	عبد العزيز	- v.
الحليم محمود			2	على مبارا	- VI
حسنى الخربوطلي	4		، النسادلي		
			الفاطمي		
للدين الشيال	د ، جمال	***	لطرطوشي	ایم یک ا	V5

دارالكاتبالعربج للطباعة والنقر